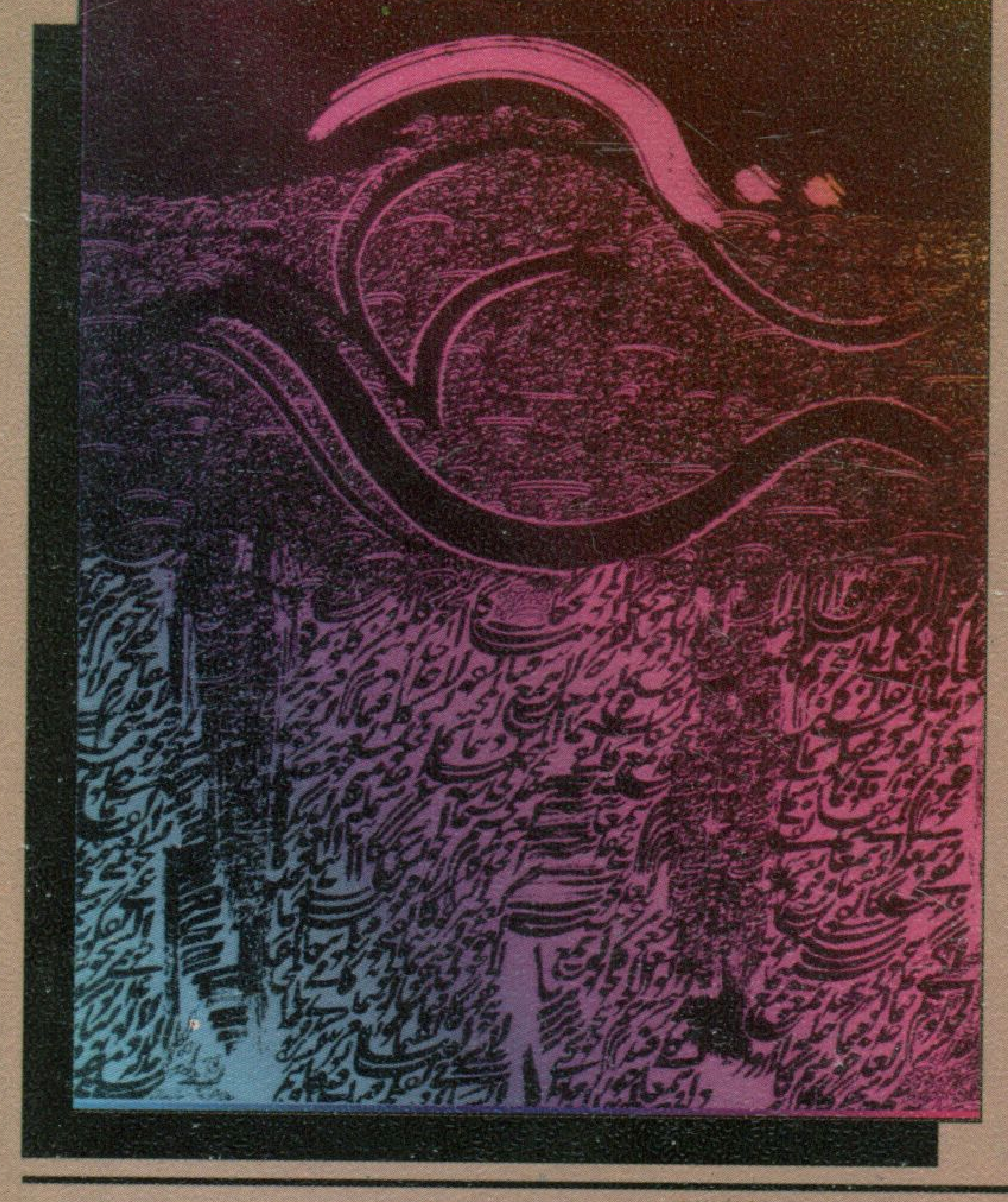
مهرجان القراءة للجميع





كتاب الشباب



الهيئة المصرية
العامة للكتاب

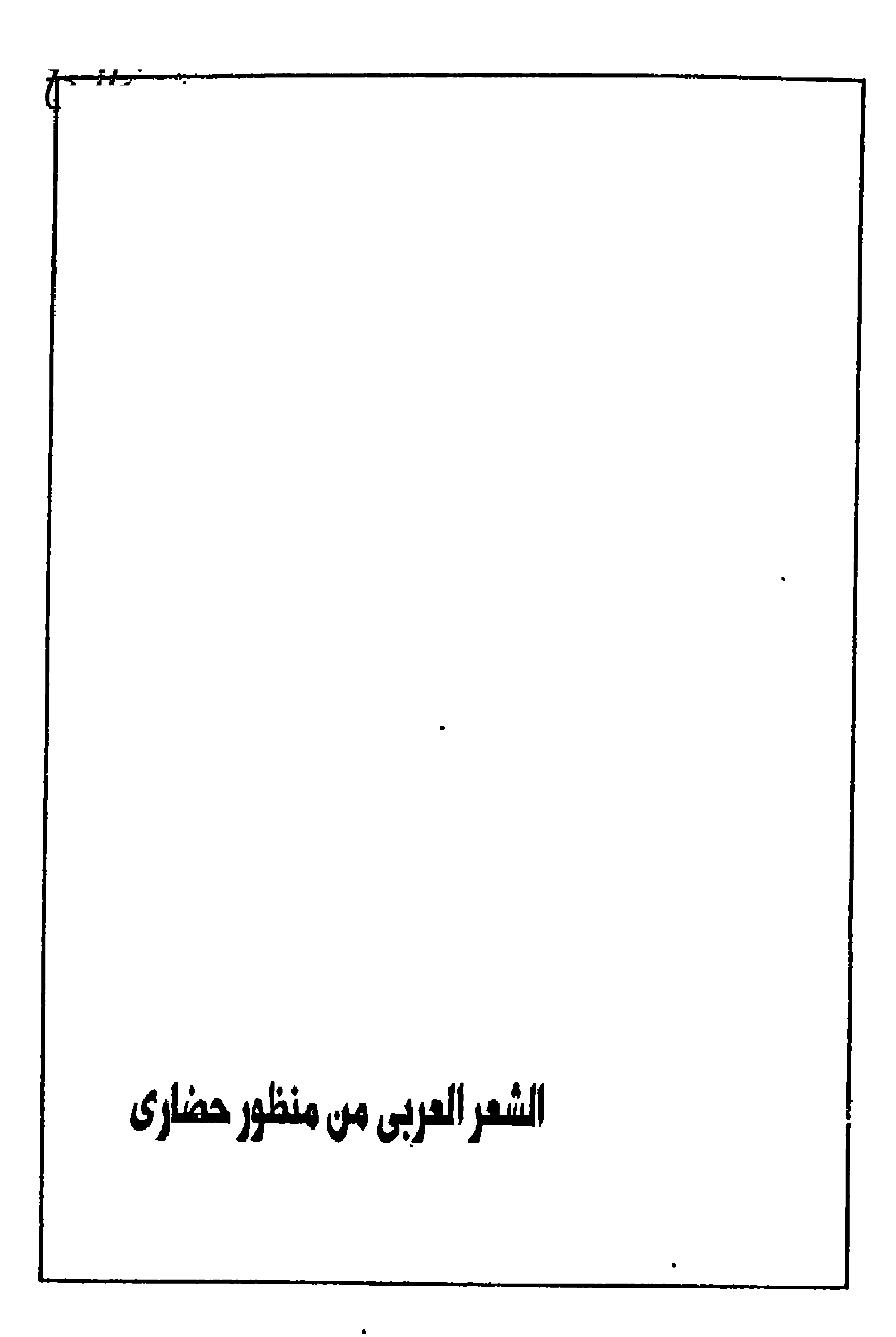
الشعر العربى

من منظور حضارى

د. مدحت الجيار

اهـــــــداء ٢٠١٢

دكتور محمد محمد الشماع



الشعر العربى من منظور حضارى

الشعر العربى من منظور حضارى

د. مدحت الجيار



مهرجان القراءة للجميع ٩٧

مكتبة الأسرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

(كتاب الشباب)

الشعر العربى من منظور حضارى

د. مدحت الجيار

تصميم الغلاف:

الإشراف الفنى:
للفنان محمود الهندى

المشرف العام
د. سمير سرحان

الجهات المشتركة:
جمعية الرعاية المتكاملة المركزية
وزارة الثقافة
وزارة الإعلام
وزارة التعليم
وزارة الإدارة المحلية
المجلس الأعلى للشباب والرياضة
التنفيذ: الهيئة المصرية العامة للكتاب



مقدمة

وهكذا تمضى مسيرة مكتبة الأسرة لتقدم فى عامها الرابع تسع سلاسل جديدة تضم روائع الفكر والإبداع من عيون كتب الآداب والفنون والفكر فى مختلف فروع المعرفة الإنسانية، تروى تعطش الجماهير للثقافة الجادة والرفيعة، وتنضم إلى مجموعة العناوين التى صدرت خلال الأعوام الثلاث الماضية لتغطى مساحة عريضة من بحور المعرفة الإنسانية، ولتقطع بأن مصر غنية بتراثها الأدبى والفكرى والإبداعى والعلمى، وان مصر على مر التاريخ هى بلاد الحكمة والمعرفة والفن والحضارة .. عبقرية فى المكان وعبقرية الإبداع فى كل زمان.

سوزان مبارك

على سبيل التقديم...

مكتبة الأسرة ٩٧ رسالة إلى شباب مصر الواعد تقدم صفحات متألقة من متعة الإبداع ونور المعرفة مصدر القوة فى عالم اليوم..

صفحات تكشف عن ماضينا العريق وحاضرنا الواد وتستشرف مستقبلنا المشرق.

د. سمير سرحان

تقديم

حول المنظور الحضارى للشعر العربى

المنظور الحضارى للشعر العربى يعنى أن نتعامل مع الشعر العربى كانعكاس متولد من بنية أكبر هى حضارة المجتمع العربى ، يحمل سماتها وخصائصها ، ليعكسها انعكاسا خاصا ، يكشف عن الأبعاد الجمالية السائدة لدى الجماعة المنتجة للشعر والمتلقية له .

والحضارة التى هى درجة الرقى المادى والروحى التى وصل اليهما الانسان هى من صنع الانسان وهى تدفع به من صورة حياة إلى صورة حياة أخرى أكثر تقدما وتجديدا وصلاحية . وتكون الحضارة

هنا درجات فليست درجة حضارة كل مجتمع ككل مجتمع ، بل يؤثر فى ذلك الأدوات التى اخترعها والقوانين التى اكتشفها والموروثات التى طورها، ومدى ملائمة ذلك لطبيعته وسلوكياته وعلاقاته بالكون والمجتمع والذات ٠

والشعر ـ تبعا لذلك ـ نوع من النشاط الروحي لانسان حضارة ما ٠ فلابد أن يعكس ما تمور به هذه الحضارة ، سواء أكانت متقدمة أم غير متقدمة ٠ فهو يعكس جوهر العلاقات الاجتماعية والسياسية والجمالية السائدة فيه ٠ وهو قادر ـ في الوقت نفسه ـ على تجاوز هذه العلاقات بما يقيمه من روابط لم تكن موجودة من قبل بين الأشياء والظواهر والبشر ٠

ويعود الدور من جديد ، فيساهم هذا الشعر فى بناء الواقع والانسان ؛ اذ يتوجه الشاعر الى رسم

المثل الأعلى الجمالى والاجتماعى ويتلقى المتلقى هذا المثل الأعلى كنموذج حياتى يحتذيه • لهذا يشكل الشعر طاقات الانسان من جديد ، باعادة صياغة الواقع والانسان فى آن واحد •

ونحن نرى في الشعر الموجود والواجب الوجود ومستحيل الوجود • ونرى فيه أنفسنا ونرى فيه الآخرين • فهو صائغ لواقعنا ولنا ، وهو مصوغ بأدوات نسيطر عليها • وهنا ينشأ الجدل بين الصائغ والمصوغ، فيتطور الانسان ويتطور نتاجه الشعرى، ويتطور المجتمع فيتطور شعره ومثله الأعلى ، حيث تتجادل الجوانب الذاتية (والنفسية) والاجتماعية (والفكرية) والجمالية وتتآذر ، لتخلق صورة شعرية ما ، قادرة على أن تساهم فى البناء الثقافى العام والخاص • وبالتالى يتطور نتاج الانسان بتطوره ، وتطور مجتمعه الى درجة حضارية ما ، نحكم عليها فى سياقها مع بقية الحضارات المعاصرة والسابقة عليها •

والانسان العربى (والشاعر العربى) يخضع للقانون ذاته .. فقد فرض عليه الواقع حدودا ، ورسم له طرقا للمسموح والممنوع ، ومن ثم نشأ الصراع بين ما هو فردى (متحرك) مقابل ما هو اجتماعى (ثابت) من ناحية أصحاب الفكر المحافظ، ومن ثم ينشأ صراع بين ما هو (ابداعى) وما هو (اجتماعى) باستمرار .

وتتحكم الظروف المحيطة فى مدى تجاوزالفردى والابداعى ، لما هو اجتماعى وثابت . فالشعر متجاوز وحر بطبيعته ، ومن ثم كان مقياسا حساسا لدرجة الصراع بين هذين المتجادلين طوال التاريخ ، فقد عكس جوهر الصراع بينهما وخضع أحيانا للمحافظة ولكنه تمرد أحيانا كثيرة على المادى والمألوف والثابت .

وسوف نرى فى هذا البحث مدى مصداقية هذه المقدمات على حالة الشعر العربى . من وجهة نظر

الحضارة ، التي هي وعاء يشمل المادى والثقـافى والروحي ، ويشمل درجة وعي الانسان ، ومدى استفادته منها في تسهيل حياته وتيسيرها ليصـل الى درجات أعلى من سلم التطور والتمدين ٠

لنرى الى أى مدى يتواكب الشعر العربى ، مع حركة الواقع وسنن التطور وكيف كان مصـــورا لجوهر العلاقات في الواقع والانسان ٠

الفصل الأول

الحضارة العربية ودور الشعر فيها

« هوية الحضارة العربية »

والحديث عن الحضارة ، حديث معقد وشائك .
ومن هنا يكون تحديد مصطلح « الحضارة » محتاجا لجهد ـ منا ـ حتى نرتضيه ، وهو فى حالة انطباق على مافى أذهاننا ومناحى حياتنا.

والحديث عن « الحضارة العربية الاسلامية » يقع فى الحدود نفسها ، لأننا نتحدث عن شيئين أو عن مفهومين يملكان الكثير من السياقات التاريخية متعددة الجوانب ، ذلك أن الحضارة العربية نمت وتطورت بعد العصر الجاهلى الى ما أسميناه الحضارة الاسلامية التى هى نتاج

مجموعة من الحضارات المنصهرة في بوتقة واحدة ٠ كما أنها قد ورثت تراثا ضخما متعدد الجوانب ٠ كما كانت الحضارة العربية ذات صلات بالحضارات المجاورة لها والقديمة عنها والمعاصرة لها في آن ـ وقد تسرب تراث هذه الحضارة الى الواقع الحضارى الجديد ، وتشكل بالطبع تشكلا جديدا ، متجادلا مع معطيات الحضارة المتفتحة على الآخرين ٠٠ وبالتالى اصبح جزءا من هيكل الحضارة الاسلامية بعد ظهور الاسلام وتكوين دولته المتميزة ٠

فكانت ـ بذلك ـ حضارة متمازجة ومختلطة بحضارات وبسياقات ثقافية وعقائدية متعددة ساهمت في تعدد وتعميق البنيات المادية والفكرية ووسعت من الوعي ورفعت من درجته وكيفيته ٠ الأمر الذى ميز الحضارة العربية الاسلامية بسمتين واضحتين :

ـ (الانسانية) ٠

ـ (الأممية) ٠

ولقد اشتملت الحضارة ـ والحضارة الاسلامية كغيرها من الحضارات ـ فى داخلها على مراحــل ، وتطورت ، لأنها ليست نتاج لحظة واحدة أو حكم واحد ، بل هى مراحل تتوازى مع حركة الانسان فى هذا العالم ، وفق الظروف التى يجد نفسه فيها ووفق الامكانات التى تتاح له ، أو التى يتيحها هو لنفسه ٠

فلن تكن هناك حضارة ليست من صنع «الانسان» وليس هنــاك انســان قادر عـــلى صنع حضــارة بمفرده ، بل هو يستفيد من جماعته الأولى ، ومن الجماعات المحيطة والمتصلة به فى أوقات الســلم والحرب على السواء ٠

وبذلك تتكشف الحضارة كترسبات فى الفــكر والســلوك وفى تجليات مادية وغــير مادية ، تدل عليها ، كما تدل طبقــات الأرض عــلى عمرها ،

وأزمنتها ونوع معادنها ، وعناصرها ، فنستطيع أن نحدد عصورها ، وتطوراتها .

اذا فالحديث عن الحضارة الاسلامية يتطلب منا أن نحدد مفاهيم بعض المصطلحات التى نستخدمها كثيرا فى هذا السياق مثل : الدين ، العلمانية ، الثيوقراطية ، الأمة ، القومية ، العربية ، الاسلامية ، الشعب ، الجماعة ، الطائفة .. الخ لأنها مصطلحات مختلف عليها حتى الآن ، وتتداخل مفاهيمها وتحديدها يساهم فى تحديد مفهوم الحضارة الاسلامية .

أما العرب ، فقد عاشوا مراحل تاريخية متعددة عبر آلاف السنين ، فمنهم من « باد » ومنهم من واصل الحياة وكون جماعته واستمر . لذلك نطلق على من بادوا « العرب البائدة » وهم العرب الذين تخبرنا عنهم كتب التاريخ بأنهم بادوا نتيجة ما أصابهم من عقاب ، كقوم هود ، وصالح وهما : عاد ، وثمود .

أما « العرب الباقية » والذين يرجع تاريخهم الى آلاف السنين قبل الاسلام ، فهم مزيج من العرب والعبرانيين ولذلك يسمى العرب الأصل منهم « بالعرب العاربة » ويسمى العرب الوافدون الى شبه الجزيرة العربية « بالعرب المستعمربة » ٠ وقد اختلط النوعان في حياة واحدة فيما بعد وأطلق على الجميع العرب ، كما أطلق على بلادهم شبه جزيرة العرب أو شبه الجزيرة العربية ٠

ولهذا نطلق على سكان هذه المنطقة « العرب » أى أن كل من يسكن هذه المنطقة وينطق بلغتها عربى ٠ ولا شك فى أن ما خلفه هؤلاء العرب داخل هذه الجغرافيا ، من تاريخ وسلوك وقيم أخلاقية وأدوات حياتية تمثل المظهر المادى للحضارة العربية قبل الاسلام ٠ ويمكن أن نطلق مصطلح الحضارة العربية على ما أنجزه العرب من أدوات تقنية وقيم أخلاقية وسلوك خاص بهم ٠ وليست الحضارة قاصرة على الانجاز المادى بل تشمل الجوانب

الروحية والفلسفية التى تشكل رؤية المجتمع بوجه عام ـ فى النظر الى الذات الانسانية والى الطبيعة المحيطة وما تملكه من ثروات وذخائر والى الكون وما وراءه أو ما بعده .

والموقع الجغرافى يحدد أشياء كثيرة ، فهو يحدد استراتيجية الدفاع عن الأرض والبشر ، كما يحدد نوع العمل المتاح للسكان كما يسمح بمعرفة العلاقة بين أصحاب الموقع الجغرافى وما حوله من أصدقاء وأعداء . وهنا تبدو مصالح الوطن نتيجة طبيعية لامكانات الوطن وطرق توظيفها وحمايتها .

و « حضارة » أى شعب لا تنبع من فراغ ، بل هى حصيلة عمل مكثف متنوع فى اتجاه واحد ، هو بناء شكل حضارى متميز يعبر عن « روح » الشعب أو الأمة أو الدولة أو الجماعة . ولا شك فى أن هناك فروقا بين هذه التسميات (المصطلحات)

ولكن المراد من ورائها أن كل جماعة تحاول بناء حضارتها فهى تعمل كافة فى البناء والعمارة وفى الفكر والفلسفة والعقيدة والديانة بحيث نرى صدى هذا العمل المكثف فى (صور) حضارية وأشكال دالة على ذلك التوجه من أجل (بناء الحضارة) ٠

وتتجلى الحضارة فى صور مادية وثقافية وروحية ، كما تظهر فى سلوك أصحاب الحضارة ، بحيث نستطيع أن نستدل على الأسس النظرية التى قامت عليها الحضارة من خلال سلوك أبنائها، بينهم وبين أنفسهم وبينهم وبين الآخرين من أبناء الأمم والحضارات الأخرى ، عبر تاريخ حضارتهم، وعبر واقع حضارتهم الآن ٠ كما نستدل عليها من مجمل المنجزات المادية ٠

ذلك أن بناء الحضارة يبدأ بسلوك وتفكير أبنائها وانهيار الحضارة ــ أيضا ــ يبدأ من سلوك وتفكير أبنائها ٠

والحضارات القديمة ، غير الحضارات الحديثة، فالأولى حضارة مغلقة متميزة لأنهــا تبنى وفى عقيدة أهلها نوازع حمايتها • لذلك بنت السدود والأسوار والأبواب ، ودفعت بأبنائها الى العمل حتى تميزت بلون انتاجى خــاص ، ويجعلنا نقول بغير قلق : « الحضــارة الصينية والحضــارة الهندية » •• الخ •

أمــا الحضــارة الحديثــة فهى عالمية ومنفتحة ، قــادرة على أن تجعــل الكون كلــه بلــدا واحــدا بفضــل التفوق التكنولوجى فى وســائل الاتصال والآليــات المتقدمــة ، والصناعــات الدقيقــة • بل نستطيع أن نقول ان كوكبنا الآن (وحضارته) قد دخل مرحلة الحوار مع الــكون ، خاصــة مــع الكواكب الأخرى التى ربما يخلق الحوار معهــا استراتيجية جديدة لكوكبنا ولحضــارة الانســان كله ، اذا تحقق أن هؤلاء المالكين لحضارات كواكب أخرى أكثر رقيا منا • تــرى كيف سيكون حالة

الصراع بين قطبى حضارة اليوم أو بين أقطابهـا جميعا ؟ ·

ترى كيف سيبرر الانسان على كوكبنا سلبيات وعيوب حضارته وهو يعانى من حـروب الابادة ، ومن التفرقة العنصرية ، ومن الاستعمار الحديث؟ ترى كيف تبرر حضارة اليوم تلك المجاعات التى تتوازى مع التخلص من الغذاء بالقائه فى المحيط؟

وترى أيضا هل سيتوازى التقدم الروحى مع التقدم التكنولوجى لحضارتنا اليوم كمـا توازت من قبل فى الحضارة الاسلامية فى عصرها العباسى المزدهر · ؟؟

ولا تخلو أمة من الأمم من منزع نحو الرقى أو من ملمح حضارى · فلكل أمة ـ كما لكل جماعة ـ شكل مميز لحضارتها ، يأخـذ تجليـات متعـددة يميزها عن غيرها من الأمم والجماعات · ولهذا ، لا نستطيع أن نقول ان هناك شعبا أو جماعة أو

أمة بدون حضارة ، سواء أكانت هذه الحضارة نتاج أبنائها أم كانت مأخوذة عن أبناء أمة أو أمم أخرى • ذلك أن للحضارة طابعا انسانيا ، الى جانب الخصوصية التى تميز حضارة منا بمظاهر خاصة بها ، نتيجة لاختلاف ظروف العمل والحياة ، و نتيجة لظروف بيئية أو سياسية خاصة •

ومن هنا كان للانسان البدائى حضارته التى تطورت بتطور أدواته وعلاقته بالطبيعة وبالانسان الآخر ، ومدى السيطرة على مظاهر الطبيعة ، واخضاع مظاهر الحياة للنظام •

والسيطرة والنظام يخضعان لعامل الزمن أى للمراحل المتعاقبة على الانسان فى مكان بعينه حتى نستطيع القول بأن « الحضارة » هى حاصل الجدل بين الانسان والمكان فى الزمان ، وفى الوقت نفسه يكون العامل الحاسم فى يد «الانسان» الذى يستطيع أن يحول امكانيات مكانه الى

« ثروة » ينتفع بها أبناء الجماعة البشرية الخاصة بواقعه ثم البشر عامة ٠ وقدرة أى حضارة على أن تمد ظلالها أو تأثيرها على « الانسان » محك مهم فى مدى انتشار هذه الحضارة ، ومدى تقبل الانسان لها حتى وهى نتاج الآخرين ٠

وهنا يظهر البعدان : النسبى والمطلق فى الحضارة ٠ ولا شك فى أن البعد (النسبى ، الذاتى ، الخاص) يتغير بتغير الملابسات المحيطة بالحضارة وبالجماعة المنتجة لها وهو البعد الذى نجد فيه دقائق مميزة لحضارة عن أخرى ولا شك فى أن البعد (المطلق ، الموضوعى ، العام) هو البعد الثابت الموروث والمستمر اذ هو عامل وحدة واستمرار وتأصيل داخل الحضارة وهو الذى يجعلنا نلمح التشابه بين حضارات الانسان الأول ٠ وهو البعد المتواصل حتى الآن بين الحضارات القديمة والمتعاقبة وبين حضارتنا الحديثة والمعاصرة ، لأنه بعد مرتبط بالانسان

كانسان، أي كجوهر إنساني ، مجرب، ومستخلص لتجربته .

ومن هنا فالحضارة تمنى تحول المجتمع البشرى (أو جماعة بشرية) ما من البساطة الى التركيب؛ ومن البدائية التلقائية العاطفية ، الى التركيبة العقلانيــة المنطقية (أو الجـدلية فيما بعــد) . والتحــول قد يعنى التطور فى حالة ، وقد يعنى الرجوع فى حالة أخرى بسبب سياسى أو عسكرى يؤدى الى تبعية حضارة لحضارة أخرى . وتكــون الحضارة فى اكتشاف أدوات (تخدم الانســان) ووســائل للسـيطرة على الطبيعــة وتقنيات لدفع المجتمــع أو الجمــاعة الى الأمام ، وليخلصهــا من « النقل » و « التبعية » فيكتشــف (الانســـان ، الجماعة ، الأمة) ذاتهــا وأصالتهــا واســتقلالها وتميزات حضارتها .

وعندما نعود الى « المعاجم » لنصل الى أصل هذا

المصطلح « الحضارة » سنجد أن الجذر الدلالى للمصطلح العربى (الحضارة) في المعجم العربى تعود الى الجذر الثلاثى (ح ض ر) نقيض للمادة الثلاثية (غ ى ب) ، حيث « الحضور نقيض المغيب والغيبة » كما نجد فى تقلب المادة « حضر ، يحضر ، حضورا ، وحضارة » •

أى أن مصطلح « حضارة » فى العربية مصدر لحضر ، فتكون دلالة الحضارة عكس دلالة «الغياب» الأمر الذى يجعل مفهوم الحضارة فى العربية هو جعل الجماعة أو الأمة (حاضرة) بين الجماعات والأمم الأخرى ، وغير غائبة ، أى تنتقل من النكرة الى المعرفة •

ولا تحضر الجماعة / الأمة حضورا وحضارة ، الا اذا أنتجت ما يبرر تواجدها بين البشر ، حتى لا تتداعى عليها الأمم وتقضى على حضورها وحضارتها ، أى تنقلها من الحياة الى الموت • أو

على أقل تقدير تدفعها من اليقظة الى السبات ، ومن الفعالية الى الجمود .

لذلك فدلالة « الحضارة » و « الحضور » و « المحضر » فى العربية تتوازى مع دلالة «الخير» و « القرب » . كما تلتقى دلالة الحضور والحضارة مع المشاهدة «كما يقول لسان العرب» أحضر الشيء وأحضره اياه ، وكان ذلك بحضرة فلان وحضرته . وحضرة ومحضره . وكلمته بحضرة فلان ، وبمحضر منه أى بمشهد منه ، وكلمته أيضا بحضرة فلان . »(١) أى بتواجده وبروزه وقربه .

وبذلك فهم العقل العربى الحضارة على أنها التواجد واثبات الذات والتمايز بل الفعل والانتاج لمظاهر خاصة ، تحمى الجماعة / الأمة من الهلاك والنسيان والضعف ، أى أن تشاهد الأمم والجماعات

جماعة أو أمة وهى ترقى ، لتحتل مكانة أرقى مما كانت عليه .

ومن ثم يأتى الهلاك والفناء من حضارة أقوى . أليس الصراع اذا بين أن تكون الأمة / الجماعة أو لا تكون ؟ بمعنى أنه اما حضور وحضارة واما غياب واهمال .

أما المصطلح الغربى الدال على الحضارة وهو civilisation فهو يعود الى الجذر الدلالى (civil) ويعنى (المدنى) فيكون للمصدر دلالة (المدنية) ، أى تتوازى « الحضارة » و «المدنية» كلما يتوازى انتقال الانسان من عدم النظام الى النظام .

ومن هنا تعنى دلالة مدنى : المتحضر المنظم الحر . وفى مادة مدنى (civil) ومشتقاتها دلالات البعد عن العسكرية كما تعنى التهذيب واللطف ، والتثقيف والكياسة ، كما تعنى

« صيرورة الأمة الى أمة متمدنة ومتحضرة رفيعة الذوق ، أو التفكير أو التصرف » وهنا يعمد الفكر الغربى الى وصف المدنى بصفات بعيدة عن العنف والجهل ، والدونية . أى أن وصف الفرد/ الجماعة / الأمة بـ (civilian) أو (civilized) يعنى انه انتقل الى مرحلة رفيعة فى الفكر والسلوك . كما تقف المدنية متوازية مع التقدم والرفعة والرقي والتخلص من الصفات الهمجية والبربرية والبدائية (٢) .

ولذلك تلتقى تسمية العاصمة بحاضرة الدولة فى العربية مع تسميتها بالمدينة الكبيرة فى الاستعمال الغربى . كما يلتقى ابن خلدون فى الحديث عن « العمران » و « التمدين » مع الدلالة العامة للحضارة والمدنية فى آن ، حيث تكون الحاضرة مركز الحكم والادارة ، والسلطة ، أى هى المكان الفاعل في عملية العمران والتمدين

والتحضر اذ يختار نظام الحكم طريقة للفعل الانسانى ولتواجد الأمة أو الجماعة ٠

وهذا ما نجده فى تاريخ الحضارات والمدن الكبرى والدول والخلافة والملك ، كيف يبدأ منها العمران ، وكيف يبدأ منها الفناء ٠ بل نعبر عن سقوط الدولة بسقوط العاصمة ، فنقول سقطت (أثينا) لنعبر عن سقوط دولة اليونان ، ونقول سقطت (روما)لنعبر عن سقوط دولة الرومان ونقول سقطت (الاسكندرية) لنعبر عن سقوط مصر القديمة فى عصر كليوباترا ٠٠ الخ ٠

وهنا جاءت التفرقة بين الأماكن وسكانها ، اذ يقال (البدو) لسكان الصحراء أو أطراف الدولة ، ويقال الريف للقرية وريفى لساكن القرية ، ويقال حضرى لساكن الحاضرة ، أو المدينة ٠ لأنها تترجم الى درجات فى الحضارة

والتمدين والعمران ، كما تترجم الى نوع من تقسيم العمل بين سكان الدولة أو أفراد الجماعة :

ويعنى ذلك أن حضارة الأمة درجات : أعلاها درجة العاصمة ومن هنا تحسب درجة رقى الحضارة بما نلقاه فى العاصمة الممثلة للأمة / الجماعة .

ولكى نرصد حركة (العاصمة / الدولة) أو (الصفوة / رجال الدولة) أو (البدو / الحضر / الريف / المدينة) لابد أن نشير الى الظروف المحيطة بهم ، والى الأيديولوجية التى توجههم لنتعرف على الحضارة / الأمة / الانسان .

والحديث عن القومية يعنى الحديث عن قوم يمتلكون خصائص مميزة لهم عن غيرهم من الأقوام . اذ لابد أن يتجانس قوم حتى يشكلوا أمة ويتم التجانس عبر وسائط تاريخية وجغرافية وفكرية وعقائدية وفنية ، تصهرهم وتحملهم على الدخول

فى إهاب واحد ، برغم التماين الحاصل بين بعض طوائفهم أو قبائلهم سواء قبل تكوين القومية أو الأمة أو بعد تكوينهما .

أما القومية العربية ، فهى قومية القوم العرب المالكين لخصائص الوحدة ، المتمثلة فى : العادات والتقاليد والأعراف واللسان والتاريخ والمكان والدين والثقافة والفنون الخاصة بهم ، والمصالح والآلام والآمال المشتركة .

ونفرق هنا بين الحديث عن القومية العربية قبل الاسلام ، والقومية العربية بعد الاسلام . فقبل الاسلام تحول العرب الى أحزاب وقبائل وأحلاف متضاربة ولم تفلح هذه المقومات فى توحيد العرب فى أمة واحدة وان تجمعت ضد العدو المشترك فى لحظات الخطر . وأما بعد الاسلام فقد اتجهت الدولة الجديدة الى توحيد المسلمين في وحدة تجمع العربى والعجمى في أمة

متجانسة ، تحقق التوحيد على المستويات كافة ، لتشكيل أمة متجانسة رغم دخول قوميات متعددة في الاسلام ، بعد الفتوح الواسعة التى قادها الخليفة الثانى عمر بن الخطاب ·

فالقومية العربية لا تعنى وحدة اللغة أو اللسان فقط بل هى « الشعور » الذى يقوم لدى جماعة معينة بوجود ترابط بينهم مؤسس على جملة مقومات من لغوية وتاريخية (وحضارية) بحيث يهبون لتكوين وحدة سياسية مستقلة بهم هى الدولة · واذا فالقومية هى نزعة اجتماعية وسياسية ، فى وقت واحد ، تتبلور فى شعور أبناء مجتمع واحد بأنهم لتجانسهم يكونون أمة واحدة مهما تناثروا فى أقاليم مختلفة » (٣) · ومهما تضاربت مصالح بعضهم ·

وقد حدد الاسلام بعد تكوين الدولة / الأمة كيفية التعايش مع أهل الديانات الأخرى ، وسمح

لهم بالتعايش مع المسلمين بشرط أن يؤدوا ما عليهم من جزية وحقوق اجتماعية وذلك ليخلق وحدة سياسية كبيرة تذيب الفوارق بين الطوائف والديانات والقوميات الداخلة في الاسلام ليقرب بين المسلمين وأهل الديانات السابقة على الاسلام لأنهم يعيشون في منطقة واحدة ، ويحتاجون الى نوع من الوحدة ، تحميهم وتحمى منطقتهم من أى غزو خارجى . وهذا ما دعى النبى (ص) والصحابة فيما بعد الى ابرام العهود والمواثيق والمعاهدات مع الأمم والديانات الاخرى .

لذلك لم تكن القومية العربية عائقا للاسلام أعنى لم تكن مانعا لتجانس (الأمة / الدولة الاسلامية) بل كانت عامل وحدة وتجانس بين العرب الداخلين فى الاسلام ـ من الجاهلية ـ وعامل وحدة وتجانس بين العرب وبقية (الأمم/ القوميات / الطوائف) كما أنها لم تمنع ـ فيما بعد ـ من قيام خصوصيات لكل بلد أو أمة دخلت

الى الاسلام وحاولت أن تستقل ــ سياسيا ــ داخل كيان جغرافي و لغوى خاص بها ما دامت تحافظ على شروط الدين ٠

وهنا لم يكون الاســلام قومية ، بل كون أمة صهرت كل القوميات الداخلة فيها، أى أن ما نطلق عليه الحضارة العربية ــ قبل الاسلام ــ تطور فى نسيج ما نطلق عليه فيما بعد الحضارة الاسلامية ٠ أى نستطيع أن نقول القوميــة العربية والحضارة العربية ، ولا نستطيع أن نقول القومية الاسلامية ٠ لأن الاسلام قد اتخذ منهجا أمميا توحيديا ، جعــل كل من ينطق بالشهادين ويقيم الأركان الأربعــة الأخرى : الصــلاة والــزكاة ، والصيام والحج ، مسلما حتى لو نطق بلغــة (غير عربية) وأينمــا سكن (جغرافيا) وكيفما كانت حالته قبل اسلامه ــ ولذا نستطيع ن نقــول الحضــارة الاســلامية والدولة الاسلامية ٠

فالتداخل الحاصل بين ما هو (عربى / اسلامى) ، يتوقف على محورين : محور زمانى (جاهلية / اسلام) ومحور لغوى (لسان عربى أو غير عربى) • وقد ساعد حامل الرسالة الاسلامية فى تحليل هذا التداخل بعد انتشار الاسلام بقوله عليه السلام « ليست العربية بأحدكم من أب ولا أم ، وانما هى اللسان ، فمن تكلم العربية فهو عربى » الأمر الذى جعل من ينطق العربية كلغة حياة وثقافة فهو عربى حتى ان ولد خارج الجزيرة العربية • اذ اللغة كنعصر وحدة واتصال تصنع عقل صاحبها وتربطه بسياقات هذه اللغة •

وقول النبى عليه السلام بأن العربية ليست أبا أو أما لأحد يعكس الفارق بين اللغة الوسيلة ، واللغة العقيدة ، حيث تقوم اللغة الوسيلة بوظيفة التوصيل وخلق الألفة بين المتحدثين ، فى حين تقوم اللغة العقيدة بأداء الغرض وهذا ما جعل الاسلام

يشترط نطق القرآن بالعربية الفصحى ، مهما تكون لغة القارىء الأصلية ، ليخلق الالفة والتواصل والتجانس فى أداء الفروض الدينية القائمة على الأداء الصوتى كالصلاة وتلاوة القرآن وبعض مناسك الحج ، أما الفروض الدينية التى لا تحتاج للصوتيات (اللغة) فهى تؤدى بالحركة أو بالنية كما فى « الايمان » و « الاحسان » فى المفهوم الاسلامى ٠

لذلك حينما يحدد القرآن الكريم « هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون » ثم يحدد لغة الدين « بلسان عربى مبين » ٠ فهو يشير الى طرق الوحدة ، ويلفت النظر الى أن أهم عنصر لقيام الحضارة الاسلامية ، هو عنصر « الوحدة » التى تبدأ بوحدة اللسان / اللغة التى تستوجب توحيد الثقافة والفكر ٠ وهى ملمح مهم فى تشكيل هوية الانسان (العربى / المسلم) ولعل ذلك الملمح هو السبب الخفى وراء توحيد النظرة الى

العربى والمسلم أو العربية والاسلامية ، خاصة بعد أن خرجت حركات التمرد ، والثورة على العربية وتقاليدها وانسانها من القوميات غير العربية كالفارسية والرومية .. الخ . ولقد ضيق هذا الوضع من مفهوم العربية الاسلامية نتيجة لمحاولة خلق التطابق ـ القسرى ـ بينهما ، والعربية لا تعرف ذلك ، والاسلام بعيد عن هذا الضيق المفتعل ، فقد كانت العروبة صاحبة صلات وعلاقات بكل الأمم تأخذ منهما وتعطى لهما . وقامت الاسلامية ـ أساسا ـ على فكرة استيعاب المتنوع داخل الدولة الكبيرة الجديدة فى وحدة .

ولم يكن التاريخ ـ تاريخ أية أمة ـ عملا انقلابيا ـ بل هو جدل متواصل ، فلا تستطيع أفكار جديدة ، أو سلطة جديدة ، أن تقلب الأمور داخل أمة عمرها آلاف السنين ، تعيش فى بقعة ذات سمات خاصة أورثتها خصائص وميزات

ميزت العربى عما هو غير عربى ،ويستحيل أن يتسى أبناء هذه الأمة تراثهم وحياتهم بين عشية وضحاها ·

لهذا لم يلغ الاسلام كل ما هو جاهلى ، بل عدله وصححه وفق الناموس الجديد ، أعنى ناموس التوحيد · فقد تجاوز تعدد الآلهة الى اله واحد يتصف بصفات مطلقة كاملة · وجعل مجرد النطق بلفظ التوحيد فقط علامة اسلام فقد قال عليه السلام : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا اله الا الله فان قالوها : عصموا منى أموالهم ودماءهم، ألا بحق » ومضى الصحابة الخلفاء ـ فيما بعد النبى ـ على هذه الطريقة عند فتوح البلدان ·

كذلك توجه الى المجتمع العربى وهو شعوب وقبائل متفرقة فى الجاهلية ، فوحدها فى أمة واحدة ، اعترفت بوجود الخلافات لكنها آثرت الدخول فى التوحيد لتكون قوة يخاف بأسها ، وقد

ظهر هذا المبدأ التوحيدى فى فكرة المـؤاخاة بين المهاجرين والانصار ، ثم فى فكرة توحيد الأوس والخزرج بالمدينة . ثم تجلت الفكرة نفسها فى طرد اليهــود من المنــاطق العربيــة التى أساءوا التصرف فيها وكانوا عامل تفتيت وخيانة خلف التكتلات الجــديدة والتى تقف فى حــرب ضــــد المشركين وأحزابهم ، كذلك تجلت الفكرة نفسها فى تأديب المرتدين فى حياة النبى (وبعــده) ، لتأمين حدود الدولة بعد وفاته .

صلات حضارية مستمرة

تجلت فكرة التوحيد كمبدأ للتعايش بين المسلمين والذميين فقد أوصى النبى بقبط مصر ، وقرظ القرآن الكريم الرهبان والقسيسين ، كذلك أمن خلفاء النبى المسيحيين فى دور عبادتهم وأعطاهم الأمان الكامل عبر التاريخ الاسلامى كله •

وقد وضح هذا المبدأ (التوحيدى) عند مواجهة الغزو المسيحى الخارجى على المنطقة العربية بخاصة ، فقد اختلطت دماء المسلمين والمسيحيين على السواء عندما ضربت بسيف العدو الغربى • ومعارك العرب مع الصليبيين مازالت شاهدة على

خطورة مبدأ الوحدة والتوحيد داخل الأمة مهما اختلفت الطوائف المكونة لها فى مواجهة الخطر المشترك ·

وكان مبدأ التوحيد هذا أول تجل من تجليات الحضارة الاسلامية ، اذ لم يقتصر على العقيدة ، انما تجاوزها الى تكوين الفرد / الانسان ، وتكوين الجماعة / الأمة · أى أنه تحول الى موقف سياسى بالدرجة الأولى حمى الانسان الفرد وجماعته فى لحظات الخطر ، بل آمنهم من خوف· كما أعلن هذا المبدأ عن خلو الجماعة المتحضرة الجديدة من التعصب الأعمى ، وتشكل بذلك ملمح ثالث من ملامح الحضارة الاسلامية وهو التعامل مع المجتمع كوحدة واحدة كما يقول عليه السلام : « مثل المؤمنين فى توادهم ، وتعاطفهم وتراحمهم ، كمثل الجسد الواحد اذا اشتكى منه عضو ، تداعى له سائر الأعضاء بالحمى والسهر » ·

وبذلك انتقل « الحمى » من أرض القبيلة أو العشيرة الى أرض الاسلام وأمته • وأصبح حماية الأخ / والجار / والذمى دستورا ينص على أن المؤمنين يبيء بعضهم على بعض • فأصبح كل مؤمن مطالبا بحماية أخيه حتى وان إستشهد فى سبيل هذا المبدأ • فمن استشهد دون ماله أو عرضه أو عقيدته أو نفسه أو أرضه فهو شهيد فى دستور هذه الحضارة •

ولذلك لم تستمر حركات التمرد ضد العرب أو ضد الاسلام وتحولت الى خيط رفيع متميز داخل الكيان العربى / الاسلامى وتشكل تياران من الفكر ، مادى ومثالى • لا يزالان يستمران حتى الآن • وان أخذا تجليات متعددة وتسميات مختلفة ، بل تحولا الى كفتى الميزان يزنان المجتمع ويحافظان

على توازنه الفكري أن تميل كفة على الأخرى ·
فيميد المجتمع وتقع السلطة فيه في يد فئة واحدة
أو تيار واحد أو مذهب واحد ·

أسبقية الحضارة المصرية

يتميز الانسان وحده بالقدرة على « عقل » الأشياء ، وتنظيم الحياة ، وخلق المجتمع ، أى خلق الحياة الاجتماعية ، التى يحتاج فيها الانسان لأخيه الانسان ، بصرف النظر عن اختلاف اللون أو اللسان · وينبع هذا الاحتياج من عدم قدرة الانسان «الفرد» على خلق أو صناعة كل احتياجاته، فهو دائما وفق تكوينه البشرى قادر على اتقان بعض الصناعات وغير قادر على بعضها الآخر، لذلك فهو « كائن مدنى اجتماعى » بطبيعته ، يحتاج

لغيره لتكتمل احتياجاته و ليدافع عن نفسه ضد عنفوان الطبيعة ، أو غدر جماعة بشرية أخرى •

هنا ، كانت الصلة الحضارية عاملا مشتركا بين بنى البشر داخل جماعتهم ، أو مجتمعهم، أو خارج جماعتهم أو مجتمعهم فهم يحتاجون للسلام مع الجيران حتى يتفرغوا لبناء حضارتهم • اذ كيف ينشغلون فى صراع داخلى يفتت وحدتهم ، أو فى صراع مع الخارج يبدد طاقتهم ، فى حين تحتاج الحضارة الى « شعب » مستقر وقادر على حماية استقراره وسلامه بقوة قادرة على رد العدوان وحماية المكان والانسان فى كل زمان تمر به هذه الجماعة •

وليس ــ من عجب اذن ــ أن تقوم الحضارات الأولى داخل جغرافية خصبة (ماء ــ زراعة ــ دولة) ومع انسان (عاقل ــ مجرب عامل) ومن هنا قامت الحضارات القديمة كلها ــ من خلال

هذه العوامل ـ فى مناطق خاصة من العالم ، ولم تقم في كل بقاع العالم القديم (آسيا ـ أفريقيا ـ أوروبا) أو الجديد (أمريكا الشمالية ـ أمريكا الشمالية ـ أمريكا الجنوبية ـ استراليا) ٠

فالانسان «صاحب الحضارة» قد أقام حضارته على ضفاف الأنهار سـواء في بلاد وادى النيـل ، ووادى الرافدين في العراق ووديان الشام ، حيث كانت المجتمعات الزراعية أولى المجتمعات المتحضرة فى العالم القديم قد أقامت حضارة على وادى النيل فى مصر ، وعلى دجلة والفرات فى العراق القديم ، وعلى بردى والعاصى فى الشام وقامت مع الزراعة مجتمعات تنبهت الى « خطورة المسئولية الملقاة على عاتق الانسان » فى صنع الحضارة أو هدمها ٠

لذلك قامت تصورات فلسفية وجدت تجليها فى « الأسطورة » وفي « الطقس والشعيرة » ثم عـلى لسان المصلحين داخل كل جماعة ٠

فقد نظر الانسان الى وضعه فى عالمه وخارج عالمه ، فوجد أن عمارة الأرض فى يده ، ووجد أنه مسئول عن نفسه وعن غيره وحاول هذا الانسان أن يصوغ قانونا لتفسير الظواهر الطبيعية والاجتماعية والنفسية فى ظل هذه الجماعات بل المجتمعات المستقرة التى ضمنت العائد الملبى لاحتياجات « المواطن » مقابل عمله . ومن ثم نشأ لأول مرة فى تاريخ الانسان « الاحساس » بالمسئولية والجزاء « أو نشأ لأول مرة صورة « لضمير الانسان » ولضمير المجتمع تحاسب الفرد بمقياس الجماعة ، وتجعل داخل الفرد قادرا على اثابته وعقابه ، ثم تم ذلك على يد الأنبياء والمرسلين والحكماء .

ونشأت هذه الأمور كلها فى المجتمعات لتكون ميزان الحياة والسلوك والحضارة بوجه عام . وقد تعرفنا على هذه القوانين من خلال ما وصل الينا

من شواهد مادية ، منقوشة على الحجر . أو على الورق أو متجسدة في الآثار التى نكتشفها يوما بعد يوم .

ونلمح من خلال ذلك التاريخ « الحضارة المصرية » وهى تبسط سلطانها على العالم القديم، من خلال « المثل الأعلى » الذى اختارته وهو « العدالة » بين البشر أمام الاله . نقول ذلك لأن « الأساس الخلقى اللازم للعدالة بين الجميع كان معدوما كلية حتى أن دستور قوانين « حمورابى » يقضى فى العدالة حسب المركز الاجتماعى الذى هو أرقى مظاهر الحضارة المصرية . فلم يكن معروفا فى بابل ، وكان نتيجة ذلك أن المبادىء الأخلاقية فى بابل لم تساهم الا بالنزر اليسير ان لم تكن لم تساهم بشىء مطلقا فى الارث الأخلاقى الذي ورثه العالم الغربى » (٤) . ومن ثم تشكل فجر الضمير الانسانى فى مصر وانتقل الى بقية الدنيا .

وهذا معناه أن المقياس الأخلاقى للعالم القديم قد وجد تجسده فى فكر أو عقيدة الحضارة المصرية القديمة ، ثم انتقل الى بقية الحضارات القديمة الأخرى ، فالبابلية والاشورية والسومرية والفينيقية قد أخذت عن المصريين وحضارتهم وصاغتها بما يناسب ظروفها ، ثم فعلت الديانة التالية الصنيع نفسه ، فقد كانت «حكمة أمينوبى» التى حفظت فى ورقة مصرية بالمتحف البريطانى ـ قد ترجمت الى العبرية فى الأزمان الغابرة ، وانه بنبوعها فى فلسطين صارت مصدرا استقى منه جزء بأكمله من كتاب الأمثال « فى التوراة » (٥) بالاضافة إلى ما نعرفه من تأثيرات مصرية قديمة (فى الحكمة) قد تحولت الى أجزاء مهمة فى مزامير « داوود » .

والحضارة المصرية القديمة ـ على ذلك ـ كانت ينبوعا للفكر والفلسفة والعقيدة والعمارة والفنون استقى منها الناس كافة فى عصور

سحيقة ، استمرت حتى ظهور الأديان الراقية الثلاثة (اليهودية) و (المسيحية) و (الاسلام) فى تدرجها الزمنى ٠

فاما فى بلاد (فلسطين) التى احتلها (العبرانيون) فيما بعد ، فان الكنعانيين الذين كانوا يسكنون هذه البلاد قبل العبرانيين كانوا قد اجتازوا مرحلة من النمو المتحضر تبلغ أكثر من ألف سنة ، حينما غزا العبرانيون البلاد ومن ثم بنى العبرانيون حضارتهم القديمة من منجزات الحضارات السابقة لهم كالمصرية والكنعانية وما يحيطهما ٠

وقد عرفنا من النقوش التاريخية البابلية والمصرية القديمة ، وكذلك من الحفائر الأثرية ، شيئا كثيرا عن هذه المدينة (الفلسطينية) الراقية الناسية السابقة لعهد (العبرانيين) ٠ كما انه كان للثقافة (البابلية) ٠٠ أثر هام خالد فى

(البابليين) فى الفن والإدب ، والـدين عـلى العبرانيين . يضاف الى ذلك أن هذا الاقليم كان منذ زمن بعيد واقعا تحت نفوذ الحضارة المصرية القديمة » (٦) وهى التى غذته بأفكارها وبمظاهر حضارتها التى تحورت فيما بعد الى سمات خاصة بها وخصوصا بعد ضعف الحضارة المصرية القديمة فى العصور التالية والتى انتهت باحتلال الرومان لمصر القديمة حتى جاء اليها الفتح الاسلامى .

كذلك قامت الحضارة المصرية القـديمة بدور المنقذ والمخلص للعالم القـديم من الظلم وعـدم التـوازن الاجتمـاعى والأخـلاقى . اذ يحـدثنا التـاريخ عن دور مصرى قديم ومـؤثر . « اثر سـقوط النظـام الخلقى القـديم . كان لا يزال هناك نفر من بين هؤلاء الحكماء المصريين ممن لم يفقدوا الأمل فى الاصلاح فقاموا بأول جهـاد مقدس لانقاذ العدالة الاجتماعية . ومن المـدهش حقا ان كان المثل الأعـلى لحكماء الاجتماع هـؤلاء

أخذ شكل رسالة التبشير بقدوم المخلص التى جاءت فيما بعد ، وهى الاعتقاد بمجىء ، حاكم عادل يكون فاتحة عصر ذهبى لاقامة العدالة بين جميع بنى البشر ، وقد ورث العبرانيون هذا الاعتقاد فيما بعد • (٧) ويحدثنا التاريخ ان هذه السياقات قد جاءت فى التاريخ بعد عصر الاهرام، الأمر الذى جعل فكرة قيام حضارة عالمية تقودها (مصر) فى العالم القديم فكرة قابلة للتحقيق اذ كانت الحضارة المصرية فى موقف المعلم الحكيم • ومن ثم « كان تحتمس الثالث » (الفاتح) أول شخصية ظهرت لها نواح عالمية فى التاريخ البشرى • ويعتبر بذلك أول بطل عالمى • ومن ثم كان له تأثير عميق فى عصره • وتمثلت فكرتا السيطرة والامبراطورية العالميتان مجتمعتين بصورة ظاهرة ملموسة في حياته » (٨) • اذ تبررت الفتوحات خارج الحدود الخاصة بهذه الأهداف الانسانية السامية •

لذلك نستطيع القول بأن الحضارات القديمة المستقرة التي وضعت حضارتها ـ لأول مرة فى تاريخ الانسان ـ مبدأ العدالة والتوازن قد استمدت من حضارة مصر أفكارها الأمر الذى جعل مصر فيما بعد مركزا استراتيجيا ·

فقد عاش « موسى بن عمران » و « عيسى بن مريم » مرحلة التكوين النفسي والفكرى فى مصر ثم انطلقا خارج الحدود ·

نقول هذا الزعم ، على الرغم من أن بعض الباحثين يرون أن « سومر هى مهد الحضارة وليست مصر ، وأن الرقي الذى وصلت اليه بلاد ما بين النهرين لم تصل اليه أية أمة من الأمم القديمة ، وأن تصنيف حضارة هذه البلاد مع حضارة الشعوب القديمة فيه غبن ، ذلك لأنهم يرقون الى مصاف الحضارتين اليونانية والرومانية ، ولا يجوز بالتالى أن يطلق على حضارتهم وصف

الحضارة البدائية » (٩) • نقول على الرغم من ذلك ، لأن هذا البعض يحاول أن يصل من هذه المقدمة الى نتيجة وهدف وهما « ان أهل بلاد الرافدين كانوا ، وظلوا السباقين فى كافةالمجالات وان حضارة اليهود لا ترتفع الى مستوى كعب حضارة بابل وآشور » (١٠) ولكنهم فى سبيل اثبات السبق على العبرانيين عمموا أحكامهم ، فليس لديهم أدلة على سبق الحضارة المصريةالقديمة الا حديثهم عن لوحات طينية نقش عليها بالخط المسمارى والبارز أدلة هذا السبق • وقد أذابته الرطوبة والمياه الجوفية والأمطار والزلازل هذه الألوان ومن ثم يظل حديثهم مجرد استنتاج عقلى منطقى يجب أن نحترمه •

. . . . . .

والنتيجة أن الباحثين فى حضارة العالم القديم يرون أن حضارة مصر القديمة من ناحية وحضارة أشور وبابل من ناحية أخرى ، أعلى قدر ومرتبة من حضارة بنى اسرائيل (أو اليهود) فيما بعد •

ونحن نتفق على هذه النتيجة بصرف النظر عمن سبق الآخر المصرية أم البابلية أو الآشورية . لأن المـوروثات المدونة والاثار الباقيـنة تـؤكد تأثير الحضارة المصرية القـديمة عـلى جيرانهـا وحتى عنـدما نجـد أثارا معمـارية أسـبق من الآثار المعمارية المصرية القديمة فلا يعنى ذلك السـبق الفكرى والفلسفى فقد كان المثل الأعلى الأخلاقى للعالم القديم كله ، قد استوى واكتمل فى مصر القديمة .

ويكفى أن نقول ان العالم القديم حين سـقط فقد سقطت حضارته على يد الغزو الأجنبى الذى هو بعيد عن منطقة الحضارات القديمة «الشرقية» وهـو سـقوط لحضارة شرقيـة عـلى يد حضارة « آرية » أدت الى وقـوع مصر وســوريا تحت سيطرة الحضارة اليونانيـة الوثنيـة ، وأدت الى سقوط حضارة العراق القـديم فى يد الحضـارة الفارسية المجوسية آنذاك ، ثم مرة أخـرى تنتصر

روما ، وتسيطر على البحر المتوسط وبلاده حتى سمي « بحر الروم » فتحولت مصر وسوريا الى يد الحضارة الرومانية حتى جاء الاسلام بحضارته وأحلها محل الحضارتين الفارسية والرومانية ، بعد أكثر من ألف عام من الاضطهاد السياسى والعسكرى والعقائدى .

« حضارة العرب وحضارات العالم القديم »

وواضح ان العرب خلال هذه الحقب التاريخية المتعاقبة قبل ميلاد المسيح من ناحية ، وبعد ظهور نبى الاسلام من ناحية أخرى ، قد شاركوا فى صنع الحضارة القديمة ، بفضل موقعهم وصلاتهم المتعددة بكل هذه الحضارات التى لم تنقطع تأثيراتها على العرب حتى ظهور الاسلام ـ وبعده ـ فتبلورت سمات عربية خاصة يمكن أن نطلق عليها الحضارة العربية حيث كانت الجزيرة العربية ملجئا

للديانات المضطهدة كما كانت ملجئا للنبيين والرسل • ففي هذه البقعة الجغرافية مهد للديانات السماوية ، بل نستطيع أن نقول ان ثقافة هؤلاء العرب كانت أسبق من حضارة العبرانيين أيضا .

فقبل ظهور المسيح عمرت الجزيرة العربية بعدة حضارات عربية عاشت فى شكل الدولة المستقرة القوية حتى تأتيها قوة أكبر فتقضى عليها أو تأتيها كارثة طبيعية لا تملك لهما دافعا • فقد قامت فى اليمن عدة دول منها : (المعينية) التى استمرت من عام (١٣٠٠ ق•م الى ٦٥٠ق•م) وهى فترة طويلة جدا ، اذا قيست بعمر الدول والحضارات القديمة رأو الحديثة • وقد كانت دولة أو مملكة معين مسيطرة على مملكة قوية أخرى هى « سبأ » حوالى ثلاثة قرون امتدت من (٩٥٠ ق•م• الى ٦٥٠ ق•م• أى حتى سقوط مملكة معين نفسها فظهرت مملكة سبأ القوية منذ هذا التاريخ وحتى (عام ١١٥ ق•م•) وقد ورد ذكر هذه المملكة

فى القرآن الكريم فى سياق بيان الثروة والنعمة التى كانت تعيش فيها بعض قبائل وامارات العرب. كما كشفت عن الصلات التجارية والسياسية مع سليمان بن داود أحد أنبياء بنى اسرائيل. كما كان لها صلاتها التجارية مع مصر والشام وفلسطين.

ومع انهيار تجارة سبأ وانهيار زراعتها بانهيار سد مأرب قامت دولة (حمير) منذ (عام ١١٥ق.م.) التى بسطت سيطرتها على (سبأ) و (ريدان) و (حضرموت) كما بسط أحد ملوكها سلطانه على (العراق) و (فارس) و (خراسان) حتى وصل الى تأسيس مدينة (سمرقند) الأمر الذى جعل نهاية هذه الدولة العربية على يد (الفرس) الذين أرادوا تأسيس مركز تجارى فى بلاد (معين) بل فى المنطقة العربية كلها لتقف أمام القوة البيزنطية التى اعتمدت على المسيحية فى

يسيطر سلطانها الاقتصادى على بعض المناطق العربية والحبشة . الأمر الذى دعى (الفرس) للتحالف مع (اليهود) للوقوف ضد القوة المسيحية فى هذه المنطقة مما أعطى لليهود بعض القوة الاقتصادية والعسكرية فى هذه المنطقة قبل ظهور الاسلام ٠

وقد ورد ذكر أصحاب الأخدود فى القرآن الكريم ، حين ورد ذكر (مسيحى نجران) المعذبين فى نار الأخدود الذى صنعه (ذو نواس) الحاكم العربى الذى اعتنق اليهودية ، عام (٥٣٤ق٠م٠) وكان ذلك سببا لاحتلال الحبشيين لليمن العربية بحجة منع الظلم الواقع على المسيحيين ٠ وذلك بمساعدة (الرومان البيزنطيين) فقد تم لهم ذلك فى الوقت الذى « عجت فيه الجزيرة العربية بالهاربين بعقيدتهم المسيحية خوفا من أن تتلوث ٠ عمرت الصحراء العربية بأماكن العبادة والعزلة ، كما ساعد على حياة كثير من الأفكار والعبادات والعقائد

والمذاهب وهى العقائد الكثيرة التى أشار اليهـا القرآن الكريم فى سورة البقرة • الأديرة والرهبان اللذين لاذوا بالصحراء ليصونوا عقيدتهم من الانحراف ، بعد أن أصبح الدين دعامة من دعائم الامبراطورية البيزنطية لتحمى به مصالحها الإقتصادية فى المنطقة العربية •

وقد تمت هذه المساعدات اليهودية للفرس وللملوك العرب الممالئين لهم ، وعيون اليهود على مصالحهم الاقتصادية فى المنطقة • ولما كان الدين عنصرا جوهريا فى حضارات هذه الازمان فقد حاول اليهود محاربة المسيحية فى الوقت الذى تؤمن فيه طوائفهم الدينية المتعددة (الصدوقيون والفريسيون والاسيون ، والسامريون والغلاة) بانتظار المسيح الذى سيخرج من بيت لحم الفلسطينية •

لذلك وقفت الحضارة الاسلامية منذ بداياتها الأولى الى صف المسيحية بل بشرت بانتصار الروم على الفرس وكان لهذا الموقف ما يبرره على المستوى السياسي والعقائدى والعسكرى والاقتصادى : فقد مدح القرآن الكريم موقف المسيحيين المسالمين وذم موقف اليهود المتغطرسين المتحالفين مع الفرس المجوسيين . مما جعل تنبؤ الاسلام بانتصار الروم مساندة معنوية للمسيحيين ضد اليهود وانصارهم من الفرس المجوس (١٢) فى الوقت الذى وقف فيه الاسلام موقفا طيبا من الديانة اليهودية ومن (موسى بن عمران) الذى يذكره القرآن الكريم مرات عديدة فى قصص الأنبياء ، مظهرا اياه فى حالة اضطهاد من (بنى اسرائيل) . كما خصص سورة كاملة « لمريم » و (المسيح) .

وكان انهيار حضارة الجنوب (اليمن) بداية لبذوغ نجم حضارة الشمال على يد (الغساسنة)

و (المنـاذرة) عـلى أطـراف الدولتين العظميين (الفرس) و (الروم) ·

ففي الطرف الشـمالى المتـاخم لحـدود فارس تأسست أمارة الحيرة (عام ٢٤٠م) برئاسة عمرو ابن عـدى اللخمى ، وظلت تحت أمـرة أسرتـه واحفاده حتى فتحها المسلمون في خلافة أبي بكر الصديق وصارت مركزا حضاريا اسلاميا ومنطلقا لفتح بلاد فارس فى عهد عمر بن الخطاب ·

كذلك قـامت دولـة الغساسنة في الشمـال المتاخم للدولة الروهانية وسيطرت على بلاد الشام كلها ، وكونت عمقا مهما للدولة الرومانية كما تسربت اليهـم خصـائص الحضـارة الرومانيـة (والديانة المسيحية) حتى أن آخر حكامهم (جبلة ابن الايهم) العـربى قـد حارب ضد المسلمين الى جانب (الروم) حينما حاولت الدولة الاسلاميـة

تأمين حدودها الشمالية ، حتى انتصر العرب المسلمون فى معركة اليرموك (عام ٦٣٦م) .

وبذلك انتقلت خصائص من الحضارة الفارسية الى العرب من خلال المناذرة ، كما انتقلت خصائص من الحضارة الرومانية البيزنطية من خلال الغساسنة أى عن طريق (عرب) ، كانوا أصحاب حضارة فى الجنوب العربى (اليمن — حضرموت) من قبل واستطاعوا أن يجمعوا بين تراثهم الحضارى ، وبين ما يساعدهم من حضارة الفرس والروم .

أما (مكة ويثرب) فقد كانتا مركزين تجاريين واقتصاديين ودينيين للعرب . وقد قامتا بدور جوهرى فى قيام الدولة وفى تشكيل بعض ملامح الحضارة الاسلامية فيما بعد .

لذلك ندرك ان الصلات الحضارية بين البلاد أو بين الحضارات لم تنقطع يوما ما . اذ تتغلب

حضارة على أخرى فتنتشر ثم تتحول أو تموت فى حضارة أخرى وهكذا •

فقد تنتشر حضارة ما بطريق سلمي واختيارى من وجهة نظر جماعة بشرية تحتاجها •

وندرك أن الجزيرة العربية (واطرافها) لم تنقطع عن الاتصال الحضارى مع العالم القديم أو الحضارات المتاخمة • اذ حدث التلاقح الحضارى عن طريق : ـ

★ التجارة •

★ الرحلة •

★ الغزو •

★ المتاخمة •

★ التحالف مع أصحاب حضارة والأخذ عنهم سلميا (١) •

كما كانت مجاورة الحضارة العربية قبل الاسلام وبعده لحضارات بعيدة عنها كحضارة الهند والصين وهى حضارة شرق آسيا ، المتميزة بذلك الحس الصوفى • معينا لا ينضب للأخذ من فلسفاتها ورياضتها الروحية التى ظهر تأثيرها فيما بعد فى الفكر الصوفى •

كذلك تعرفت على نتاج حضارات مصر والعراق والشام وفلسطين واليمن ثم اليونان والرومان • حيث كانت الجزيرة العربية محط انظار المحيطين بها • كما كانت ـ بموقعها الاستراتيجى ـ معبرا بين الشرق والغرب وكان أهلها وسيطا حضاريا متميزا • ينقل مظاهر الحضارة فى رحلاته الطويلة من أقصى الشرق الاسيوى الى أقصى شمال آسيا ثم الى جنوبها ثم الى أفريقيا وغيرها • لذلك انتقلت أدوات حضارية الى هؤلاء العرب بل انتقلت ثقافات وفنون وعقائد، تجاورت وتحاورت وتجادلت حتى مجيء الاسلام •

ولم يتركها المسلمون بعد ذلك فقد نهض المترجمون ينقلون تراث هذه الحضارات فيما بعد ·

ولم ينكر الاسلام هذا التداخل أو الجدل الحضارى بل دعمه واستفاد منه فى تدعيم حضارته ونهضته الفكرية والعلمية والفنية ومعنى ذلك ان الحضارة تؤثر بطابعها الانسانى العالمى ، الذى يأمل دائما فى جعل الأرض ـ سكن الانسان ـ وحدة واحدة وهذا ما تبشر به حضارة اليوم بعد تقدمها المذهل في وسائل الاتصال والاختراع ·

التراكمات الحضارية

والحضارة ـ كما أسلفنا ـ طبقات متعاقبة ومتجاورة ، مثلها مثل طبقات الأرض حيث ، كل حضارة من الحضارات الكبرى والصغرى تخفى

تحتها حضارة سابقة عليها ، ثم أخرى وهكذا ، حتي بداية قصة الحضارة في مكان ما · ومن العسير ـ كما هو واضح ـ أن نصل الى هذه البداية لأن البدايات ، وهي الصراع الطويل الذى يسبق استقرار جماعة ما في مكان ما ، واتخاذها اياه وطنا ، تختفى تفاصيلها الصغيرة فى ظلام الليل الطويل ·· (١٣) بالاضافة الى أن كل ما تصل اليه (يد) و (عين) الانسان من أدوات حضارية تسهل الحياة أو تختصر الزمن أو تحمى الانسان تصبح ملكا لكل انسان بدون النظر الى مصدرها الأول ·

لذلك تكون الحضارة في جوهرها توظيفا لعقل الانسان لاستخراج أدوات تعينه على تحسين الحياة ، يقتبسها من المادة المحيطة به · وبمقدار ما يصل الانسان الى اكتشاف عنصر ، قانون ، طريقة ، يصل الى حياة أفضل ، سواء نسب ذلك الى مكتشفه أم لم ينسب ، وسواء وصل الانسان الى ذلك بالصدفة ، أم بالعمد ، والعلم ·

ونتساءل هنا ، من هو أول من اكتشف النار ، العشب ، الماء ، الحديد ، الزيت ، العجلة ، ... الخ ؟ . لا شك فى أن السؤال محض افتراض وأن الاجابة محض افتراء . وحتى عندما نصل الى اسم المكتشف أو المخترع فى العصر الماضى ، أو فى عصرنا ، لا نصل الى الأسباب والممهدات المجهولة التى دفعته وساعدته على التوصل الى العنصر القانون ، المنهج وماذا يهم حين نعرف ؟؟ . انه مجرد كتابة تاريخ أما الاستعمال فمتاح لكل انسان . وهل سنسأل عن اسم مخترع البارود ونحن نقاتل ؟ .

وينظر ــ هنا ــ للطبقات المكونة للحضارة ، وانتقالاتها وتجلياتها ، على أنها تطور فى التكنيك (التقنية) وفى أسلوب الحياة والى تحول عام فى الثقافة (والحضارة) يمثلان أعمق تغير فى الجنس البشرى وهو يرتقى بالمجتمع الانسانى من طور

الى الآخر • ذلك « لأن البيئة المادية والكيان الروحى لانسان ما قبل التاريخ ـ وقد مرا فى ذلك العصر بتحول بلغ من أهميته أن كل شىء سبق ذلك العصر يبدو أقرب الى أن يكون حيوانيا غريزيا ، وكل شىء تلاه يبدو نموا متصلا هادفا •

فقد تحولت العشائر الرحل الى مجتمعات محلية مستقرة وحلت محل الجماعات المفككة المبعثرة من الوجهة الاجتماعية هيئات اجتماعية منظمة مندمجة محليا » • (١٤) وهذا ما أشرنا اليه من قبل • يضاف الى ذلك أن النقلات الحضارية لم تكن فجائية ولم تكن مصادفة لأنها تدريجية ومتداخلة ، فكل مرحلة حضارية تمضى تترك آثارها فى المرحلة التالية ـ كما أن المراحل الحضارية متداخلة ـ فقد تنتصر الحضارة فى تجليها العسكرى لكنها تنهزم أمام تجليات الثقافة والفنون والامثلة كثيرة طوال عصور التاريخ •

وفي الوقت الذى تكون فيه منجزات الحضارة ملكا للبشر كافة ، تنتفى تلك النظريات المتخلفة التى كانت تنادى بتمايز جنس بشرى على آخر • ، وتسقط نظريات تفاضل الاجناس التى تفرق بين جنس وآخر بسبب اللون أو اللسان أو الجغرافيا • كما تسقط نظرية الدورة الحضارية التى ترى ، الترف نهاية الحضارة • لأن الحضارة صراع دائم من أجل البقاء والظهور وجدل دائم للوصول الى مستوى عيش وحياة أفضلين • وتسقط مقولات أن التاريخ يعيد نفسه ، أو أن الشعوب ترتقى كما يرتقى الجهاز العصبى أو كما ينمو الانسان من المهد الى الشيخوخة • لأن الواقع حضور موضوعى خارج الوعى به • وعلى الوعى أن يرصد قوانينه الفاعلة فى تطور الفرد والجماعة • وعليه أن يكتشف قانون وأدوات الترقي الحضارى حتي لا تسقط المقومات الصانعة للحضارة فى مستوياتها ، المادية والروحية والاجتماعية فى

صلاتها المستمرة مع الآخرين . لا من خلال الرصد الذاتى للتاريخ .

وسوف نرى أن الحضارة الاسلامية ستتكون بالتدريج وبالصهر والتجادل المستمر من الحضارات المتاخمة ، الداخلة الى الاسلام (أو القديمة عن طريق الترجمة) . اذ تساهم حضارة الشرق والغرب فى صياغة ما أطلقنا عليه الحضارة الاسلامية فيما بعد . وهنا تنظر لأى حضارة على أنها تراكمات حضارية يفضى بعضها الى بعض ، وأنها تحمل جانبا نسبيا محدودا بقوانين الواقع الآنى المحدد فى زمن محدد ، ولكنها تحمل جانبا انسانيا مطلقا هو ما يجعل بعض نتاج حضارة ما صالحا لحضارة أخرى سابقة عليه أو لاحقة له .

الشخصية العربيــة الاسلاميــة

لكل أمة سمات تخصصها وتميزها ، سواء فى ملامح الجسد أم فى ملامح التفكير والسلوك ، حيث تقوم عوامل مشتركة فى صهر هذه السمات والملامح لتصنع ما نطلق عليه « شخصية الأمة » أو « هوية الأمة » وهى تطلق عــلى الفــرد فتقول انه عربى التكوين أو اسلامى التكوين . وقد أدى التداخل بين العربية والاسلام الى ظهور هوية عربية اسلامية أطلقنا عليها ــ طلبا للسهولة ــ الهوية / الشخصية الاسلامية . لأن عملية التفاعل بين الأمة العربية وبين الاسلام عملية عميقة وشاملة انتهت الى أن معظم الأمة العربية قبلتها بوعى ــ وبدونه ــ وكان

المؤمنون بها عن وعي ، وقوة هذه الحركة وعلامة وجودها ، فهم الذين تحركوا لحملها وحمايتهـــا ونشرها ، فكان أن عاشت الرسالة بهم وعاشـــوا بها ولها ومن هذا التمايش والتفاعل كان الوجود الجديد ، الذى تمثل فى الانسان العربى المؤمن ، وتمثل فى الدولة العربية ، كما تمثل فى الحضارة العربية الاسلامية الجديدة وهكذا كانت العلاقـــة بين الأمة العربية وبين الاسلام علاقة عضوية »(١٥) حتى يمكننا أن نقول حضارة عربية نسبة الى لغتها واسلامية نسبة الى اسم عقيدتها •

وهذا ما جعل الفكر العربى يمتزج بسهولـة مع فكر الحضارات غير العربية وأدى هذا المزج الى خلق حضارة اسلامية فيها العربى وغير العربى ، فيها المسلم وغير المسلم ، حتى أن غير العرب وغـير المسلمين قد ساهموا فى بناء الفكر والثقافة والفن أكثر من العــرب الخلص ، فتداخــل التـراث مع

الحاضر ، والأنا مع الآخر ، وقامت الحضارة كوحدة شاملة انصهرت فيها كل هذه الأشياء ٠

فقد حارب الاسلام المنافقين والمرتدين فى بداية عهده ، كما حارب «الشعوبية» و «الزندقة» و «الغلو» فى حياة الدولة العربية الاعرابية الأموية ، وفى حياة الدولة العربية الفارسية العباسية ، كما وقفت السلطة ضد التحريف بتدوين القرآن وتوحيد تلاوته ، ثم بجمع الحديث الشريف والتاريخ ٠

ووقفت ضد « الانتحال » و « التأويل » و « الخروج » على اجماع « الأمة » كما لفظت مبادىء الحلول ، والتناسخ والبداء والتشبيه وكأنها تقف ضد النزعات المادية خوفا من هدم الاسلام وسقوط دولته وتعطيل حضارته أو تشويهها ٠

لذلك ارتبطت موجات المد الحضارى الاسلامى بسلطة سياسية واعية بدورها الحضارى ، وهدفها الدينى ، ذلك أن : « أصول الدولة الاسلامية كانت اصولا ايديولوجية وليست سياسية محلية ، أو عرقية . كما أن عرض الحكومة المبدئى كان الدفاع عن الدين وحمايته وليس الدفاع عن الدولة وحمايتها » (١٦) . لانهم يعلمون ان الدين هو مبرر وجود دولتهم ، بل هو أساس قيام الخلافة بعد النبى ، وهو مبرر وجود حاكم غير عربى مبرر وجود دولتهم ، بل هو أساس قيام الخلافة الاسلامية حضارة دينية فى جوهرها ابقت على ما لم يتناقض مع شخصيتها ولفظت ما يتناقض معها . اذ وضعت كل من خرج ضدها خارجا على الدين .

لذا لم تكن هذه الدول (الأموية ، العباسية ، المملوكية ، العثمانية) قوى حضارية الا لفترات قصيرة من حياتها ، هى فترات التأسيس وبناء القوة

ثم تثقل عليهـا وطـأة الجند المرتزق ومطـالبهم المتزايـدة فينصرف المـال كلـه فى ذلك الوجـه ويتوقف العمل الحضارى من جانب الدولة وبتوقف العمل الحضارى تقـدم الدولة مبـرر وجودها أو مـا يسـمى (Raison d'être) وبـدون مبـرر الوجود تصبح مهمة الدولة الوحيدة تقريبـا هى المحـافظة عـلى وجـودها ويـزداد عبئوها عـلى الناس (١٧) • ومن ثم تصبح المحافظة على الدين مبررا لوجودها أمام الناس ، ومبررا لقيامها بدور السلطة •

والحضارة الإسلامية قد رسمت شخصيتها كأمة معتدلة فى النفس والعقل ، متوازنة فى الجماعة ، مسالمة مع الجيران ، قوية ضد العدو فمن يخرج ـ فى نظرها ـ على الاعتدال والتوازن والسلام يعد خارجا على الجماعة • ومن هنا كانت العلاقـة بين السلطة والثقافة (والدين) علاقة الحارس ، لقيم السلطـة (صاحبـة القـوة فى بنـاء صرح

الحضارة) • وبالتالى كان مقياس المحافظة أو الاستمرار مرتبطا بظروف السلطة الحاكمة ففى حين اختفت الجماعات المناهضة للسلطة الأموية ، بكل ما تحويه من أفكار مختلفة مع فكرة الوراثة والملكية ، نهضت هذه الجماعات فى ظل السلطة العباسية فظهرت حركات الشعوبية والزندقة والغلو ، لأن المناخ العام كان يتيح لها حرية فى الفكر والحركة لكن السلطة العباسية حين احست بسطوة البرامكة على سبيل المثال طاردتهم حتى قضت عليهم فيما عرف (بنكبة البرامكة) • وهكذا كانت السلطة تسمح بحرية الحركة حين لا تمثل الحرية خوفا عليها وترتد فى ذلك حين تحس بخطر عليها •

أى أنها كانت ترتد لذاتها فى مواجهة الحضارات الاخرى في الوقت الذى تقبل فيه ترجمة كل ما تصل اليه يدها من ثقافة هذه الحضارات •

وبالتالى كانت السلطة السائدة تشجع فكــــرا ضد فكر ، لتنصر نفسها وقد تعود فتشجع عكس ذلك اذا تغيرت الظروف ، ومن هنا سادت المذاهب المعتدلة ٠

ولقـــد حاولت الحضارة الاسلامية أن تحتفظ باستقلالها النسبى رغم الاختلاط الحادث ، لتحافظ على ثقافتها وفلسفتها وفنونها وعلومها ٠ أى أن يخدم البنـــاء الثقافى (العلوى) البنـــاء المـادى الاجتماعى السياسى ٠ وقد أدى ذلك الى انفصـــال الخلافة عن كثير من الجماعات الموجودة فى دولتها لاختلاف فكرى وسياسى بينهما ٠

الأمر الذى جعل الخلافـــة قائمـــة على القـــوة العســكرية أو عصبية قبليـــة أو فكـــرة سياسيـــة يخدمهـــا (الدين) فانشغـــل كثير من النـــاس عن الخلافة (السياسة) خوفا من التقلبات والانقلابات، وحافظـــوا على أنفســـهم (أمـــام الله) واختطوا

لأنفسهم ثقافة وفلسفة وآدابا وفنونا ميزت بين ما هو شعبى وما هو رسمي فيما بعد • كما ظهر فى الحضارة الاسلامية ما هو عام وما هو محلى اقليمى ، ومع ذلك ظل الدين هو جوهر العلاقة بين (الخليفة والرعية) وظلت العادات والتقاليد والاعراف والظروف الخاصة منبعا للتشريع والسلوك وبناء بعض المظاهر الحضارية • التى تمثلت فى المعمار ، النسيج ، الخطوط ، الزخارف، الصناعات اليدوية ، الأدب الشعبى ، الفنون الشعبية •• الخ •

وفى ختام هذه المداخل النظرية ، لابد أن نتحدث عن هوية الحضارة • فالحضارة قوة دفع دائمة لتقدم البشرية ، وكل أثر يخدم الانسان هو أثر حضارى ، وكل اداة تخدم الانسان هى أداة حضارية • وكل عمل يوجه ضد الانسان مهما تكن قيمته العلمية أو الثقافية ، ليس عملا حضاريا ، كاختراع وسائل القتل والتدمير ،

ـ مثلا ـ حينما توجه لحماية الانسان فهى وسائل حضارية أما اذا استغلت لاحتلال دولة أو لتفرقة عنصرية فليست وسائل حضارية بل وسائل متقدمة لهدم الحضارة الانسانية كلها :

فأبسط المكتشفات ـ من هنا ـ وأكثرها سذاجة يعد حضاريا لنفعه المادى أو المعنوى أو الجمالى ، ولكننا قد نرفض أكثر المخترعات تقدما اذا وجهت للخراب والتدمير ٠

والحضارة الآن تحول بمنجزاتها العالم كله ، بل الكون كله الى قرية صغيرة ، ومن ثم تغير موقع الانسان ، فلن يستقيم عمار الكون على فئة واحدة ولن يرجع عمارتها يوما الى صلة واحدة وعلامة الخطأ الذى لا شك فيه ان نفسر هذا الكون الواسع بتفسير واحد أو ندعمه بدعامة منفردة اذ لا نهاية لعوامل العمار ولا للمؤثرات التى تنجم عنها هذه الآثار (١٨) ٠

وبالتالى فلن تقف الحضارة عند حد ، هى فى حالة حركة وتقدم لأن الانسان الذى يصنعها لن يتوقف عن التفكير والحركة ، هو دائما فى حالـة (حياة) فهو فى حالة احتياج للجديد ، وهو دائما ما يكتشف أخطاء فى فهمه وسلوكه تحتاج لتعديل وسوف تستمر الحضارة الانسانية فى هـذا الدور الجـدلى ما عاش الانسـان وما عاشت عنـاصر الكون ٠

هوامش الفصــــل الأول

(١) ابن منظور ، **لسان العرب** ، دار المعارف ٠

باب حضر وتقلباته ، ج ٢ ، من ص ٩٠٦ الى ص ٩١٠ ٠

(٢)
The Lexicon Websier dictionary Volume 1, Section Civil pp. 184 for example.

ويمكن متابعة المادة نفسها ومشتقاتها فى أى معجم غربى ، راجع ، على سبيل المثال :

المورد ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٧٦ ٠

مادة : civil ص ١٨٠ ، ص ١٨١ ٠

(٣) صلاح الدين عبد الوهاب ، **أضواء على المجتمع العربى** ، المكتبة الثقافية أول أغسطس ١٩٦٣ ، ص ٥٤ وما بعدها ٠

(٤) جيمس هنرى برستد ، **فجر الضمير** ، ترجمة سليم حسن ، سلسلة الألف كتاب (١٠٨) الناشر مكتبة مصر ، القاهرة ، ١٩٥٦ ، ص ٣٣ ٠

(٥) نفسه ، ص ١٢ ٠

(٦) نفسه ، ص ٣٧٢ ٠

(٧) نفسه ، ص ٣٩/٤٠ ٠

(٨) نفسه ، ص ٢٩٣ •

(٩) جورج بوييه شمار ،
المسئولية الجزائية في الآداب الآشورية والبابلية ، ترجمة سليم الصويص ، منشورات وزارة الثقافة والاعلام ، بغداد ، ١٩٨١ ص ٥ مقدمة المترجم •

(١٠) نفسه ص ٢٧ ، والحديث من مقدمة المترجم •

(١١) نفسه ص ٩ • والحديث للمترجم •

(١٢) يصنف القرآن الكريم دائما القوى السياسية المحيطة بالمسلمين ليبين الأعداء والأصدقاء وبصرف النظر عن تاريخ نزول الآيات الكريمة في هذا السياق ، نرصد الموقف العام ، لأن رصد الموقف العام يساعد في بيان كيفية قيام الدولة الاسلامية وحضارتها فقول القرآن الكريم عن القوى المحيطة واضح في سورة البقرة أولها حتى الآية (١٢٣) حيث يبين القرآن الجماعات والطوائف والديانات المحيطة ، ويحدد موقفا منها ، برصد أفكارها ثم بالحوار معها لاثبات ضرورة وصدق الدعوة الاسلامية ولنأخذ الفكرة من أولها : أي من حيث يؤمن المسلم بالغيب ويقيم الصلاة ويؤتي الزكاة والصدقات ويؤمن بما جاء بالقرآن وما جاء من قبل القرآن اذ يقول القرآن الكريم :

« والذين يؤمنون بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون » آية (٤) من سورة البقرة •

ثم يوضح القرآن الكريم تفسيره (لمن قبلك) بالاسلام في المفهوم العام في الآيات (١٢٨) ، (١٢٩) ، (١٣٠) ، (١٣١) ، (١٣٢) ، (١٣٣) ، (١٣٤) ، (١٣٥) ، ثم جمعها في الآية التالية في قول القرآن الكريم « قولوا آمنا بالله وما أنزل الينا وما أنزل الى ابراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب والأسباط ، وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم ، لا نفرق بين أحد منهم ، ونحن له مسلمون (آية ١٣٦) من سورة البقرة ، مشيرا

في ذلك الى أنه ينبع من هذه المصادر المتصلة بالسماء ، وليس نقيضا لها ، وانما هو مكمل لها ٠

ثم يعرض القرآن في سياق آخر للموقف من القوى السياسية الفاعلة آنذاك بقوله « ان الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا ٠ ان الله يفصل بينهم يوم القيامة ، ان الله على كل شيء شهيد » ٠ في آية (١٧) من سورة (الحج) ٠ ليبين موقع النقاش في العقيدة ، من موقع الخط السياسي العام الذي يختطه الاسلام بين هذه الملل والنحـــل والطوائف والأديان خاصة والاسلام يغير كثيرا في نظام المجتمع المتوارث من قبله بآلاف السنين ٠

وهكذا كان الاسلام ، وهو يبني دولته وعقيدته وحضارته يضع عينا على السباق التاريخي للأديان والرسالات والعين الاخرى على القوى الفاعلة والحضارات المؤثرة في عصره استعدادا لنشر دعـــوته وتغليب حضـــارته سلميا ، سواء مع القوى الداخلية (داخل الجزيرة العربية) أم مع القوى الخارجية (الفرس والروم) حتى تحقق له مساندة القوى الداخلية ضـــد القوى الخارجية أثناء الفتح العربي/الاسلامي لبلاد فارس ولبلاد النفـــوذ البيزنطي في الشام ومصر واليمن والمغرب ٠

الأمر الذي ميز الحضارة الاسلامية بالروح الانسانية الشاملة وبروح السلام والمؤاخاة والمساواة بين البشر كافة ٠

(١٣) حسين مؤنس الحضارة ، سلسلة عالم المعرفة ، العدد الأول ، الكويت ، يناير ١٩٧٨ ، ص ٢٤٢ ٠

(١٤) أرنولد هاوزر ، الفن والمجتمع عبر التاريخ ، ترجمة فؤاد زكريا ، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر ، ١٩٦٧ ، جـ ١ ص ٢٤/٢٥ ٠

(١٥) عبد الله سلوم السامرائي ، الغلو والفرق الغالية في الحضارة الاسلامية ، دار واسط للنشر ، لندن ، بغداد ، ١٩٨٢ ، ص ٦ ٠

(١٦) Lambton, State and Government in Medieval Islam, Oxford University Press, 1981, p. 13.

(١٧) حسين مؤنس ، الحضارة ، ص ١٧٥ .

(١٨) عباس محمود العقاد ، فلاسفة الحكم فى العصر الحديث ، سلسلة اقرأ (٩٧) دار المعارف ، القاهرة ، ديسمبر ١٩٥٠ ، ص ١٤٨ .

الفصل الثانى

تراث الشاعـــر العربـــى

بناء الدولة وجه من وجـوه الحضارة ، وفى الوقت نفسه لابد لبنـاء الحضـارة العظيمـة من دولة قوية ، تنظم ادارة الجماعة ، وتسن لهـا القـوانين والنظـم فى كل الشئـون الاجتماعيـة والسيـاسية والعسـكرية والفـكرية والفلسفيـة والثقافية والفنية ٠٠ الخ ، كذلك لتصنع لنفسها نمطا مميزا فى التربية والتعليم والاخلاق ٠ وهو النمط الذى يخـرج المولـود الى حيز التلقى من المجتمع (الاسرة ، قاعة التعلم ، المجتمع) ثم يبدأ المجتمع فعله فى اعداده للقيـام بمهمة داخـل المجتمع ، تبدأ من المحافظة على الذات والمشاركـة

مع الآخرين فى بناء المجتمع / الدولة / الحضارة وصد أى عدوان على هذا البناء ٠

ومن هنا فأن المجتمع المحيط هو المؤثر الأول فى بناء صرح الحضارة ٠ ومن ثم يكـــون الطفل ارهاصا لرجل ، والطفلة ارهاصا بأمرآة حيث تدور الدائرة ، من رجل وامرأة ببنيان وفق المثل الأعلى المطلوب والمتاح كليهما ٠

وقد يبنى « الفرد » بهذه الطريقة لكنه يملك روحا وذهنا نقديين يرنوان دائما الى حياة أفضل قد تختلف عما يعيشه الآباء والأجداد ٠ وتصـــقل هذهالروح وهذا الذهن بالثقافة التى تخلقالدهشة فى النفس وتدفعه الى التســـاؤل عمـــا حولـــه فى النفس ، فى الطبيعة ، فى المجتمع وبالتالى تدفعه الى تصور « المجتمع البديل » وهنا يقوم الصراع بين الفرد صاحب الرؤية والمجتمع صاحب التقليد أو بين (الفرد / الابداع) ، والمجتمع (الثبات) ٠

ولا يكون المستقبل اذا « فكــرة » فى الغيب فهى تترك ارهاصاتها فى الحاضر ، أى يقـــوم (الحلم) بالصراع مع (الواقع) من أجل الوصول الى (الحقيقة) من وجهة نظر (الفرد) أو من وجهـــة نظـــر (الجماعـــة) أو من وجهـــة نظر (الالهـــام / الوحى) لذلك تأخـــذ وجهـــة نظـــر (الالهام) (الوحى) قداسة لارتباطها بالغيب ، بالسماء ، وتكون محل صراع من أصحاب الرؤية المادية • ومن هنا يكون الصراع أكثر شراسة لأنه يدخل الى منطقة السيادة على الآخرين • وتكـــون شخصية (النبى / الرســـول / الملهم) شخصيـــة مقدسة ومؤثرة فى تشكيل الفرد ونظام الجماعة • كذلك يأخـــذ مثقفـــو العصر ومفكـــروه وأدباؤه وخطباؤه وفنانوه مكانة تالية لانهم يتحدثون وفق منهج يجعل فى حديثهم وسلوكهم خصوصية تثـــير دهشة الناس • الأمر الذى يخلق تفسيرا سحريـــا لهذه الخصوصية أو رفضا شكليا لهذه الخصوصية

فى آن • اذ ربما اتهموا « بالجنون » تارة أو على أقل تقدير « بالغرابة » و « الغموض » أو بالخروج على التقاليد والموروث •

ويفسر هذا الموقف ارتباط الفنون وبعض وجوه الثقافة « بالجن » أو أعمال « الكهانة » ، ويصبح الموقف (السحرى ، الغيبى) محط الانظار لنقص الوسائل والتقنيات المساعدة فى فهم الظواهر الاجتماعية أو النفسية أو الكونية • ولذلك يتميز فى كل جماعة (فئة) تقف موقفا وسطا بين القداسة والسحرية من هذه الفئة : العرافون (العرافة) والمتفرسون (الفراسة) والمنجمون (النجامة) بالاضافة لقراء الطالع والكف والملامح وبالتالى تظهر فى المجتمع ظواهر سحرية غيبية تساعد (الفرد) على اتخاذ القرار وحسم المواقف حين يفتقد (السبب العقلى) أو المنهج (المنطقى أو العلمى) اذ يظهر التفاؤل والتشاؤم وفق مظاهر أشبه بالطقس السحرى

البدائى مثل (التطير) وتوسيط (الأصنام) وتفسير الاحلام .. الخ . كما سنبين عند الحديث عن الشاعر والشعر وبالتالى قد يقرن الشاعر وعمله فى هذه الزمرة .

ويقف على الجانب الآخر من يطمئنون الى كذب هذه الوسائط السحرية وتكذيب نتائجها ، والبحث عن حقيقة الشيء فى موضوعه ، وظاهرته للوصول الى قانونه ، وترك كل ما لا تصل اليه عقولهم تحت البحث عن حل أو قانون .

ويعمل الطرفان (الغيبى ـ السحرى) و (الموضوعى) فى آن واحد داخل المجتمع فينشأ منذ ظهورهما تمايز فكرى وسلوكي يتجدد باستمرار ولا يتوقف الا فى لحظات الخطر العام الذى يهدد الطرفين فيتوحد المجتمع ـ رغم خلافاته ـ حتى ينتصر على الآخر (الغريب) بأخذ تقنياته أو برفضها للحفاظ على « الأنا » .

عالج النبى من منظور اسلامى مشكلة (النسب) والعصبية والملاقة بين شرائح المجتمع بطريقة جديدة على العرب غيرت من المجتمع الجاهلى وأسست نظاما اجتماعيا متساوقا مع نظام التشريع .

فقد كان المجتمع البدوى يقوم على هرم يبدأ بشيخ القبيلة صاحب الحظ الأكبر من المكاسب . اذ له ربع غنيمة الحرب أو الغزو ، وله الصفية منها وما يجده الجيش فى الطريق وما لا يصلح للقسمة . وله مجلسه من الاحرار المالكين لرقاب من يستجير بهم (الجار) والحليف الطالب لنجدتهم ، والعتيق ثم الارقاء العبيد والسبايا . وكان لابد للمجتمع ان يدور وفق تحقيق مصالح هؤلاء الاحرار .

وتأسس على ذلك فكرة النسب القبلى «والعصبية القبلية» . وقد غير الاسلام هذه التركيبة

الاجتماعية بمبدأ المساواة ، والنسب الى الاسلام فذابت القبيلة فى الأمة • وأصبح لكل فرد فيها وظيفة يؤديها ترد اليه اجرا أو مكافأة • وكان ذلك بداية لتكوين الدولة أيضا ـ لأن ـ العصبية باعتبارها وازعا • ظاهرة خاصة بالبدو • وذلك لأن الوازع ، الذى يدفع عدوان الناس بعضهم على بعض فى المدينة ، والذى يرد العدوان الواقع عليها من خارج هو الدولة ونظمها الدفاعية •• ثانيا أن العصبية فى العمران البدوى تقوم بنفس الدور الذى تقوم به الأسوار والجندى فى العمران الحضرى • أى أنها قوة للمواجهة • ولا وازع للفصل بين المنازعات ، الشىء ، الذى يقوم به كبراء القبائل وشيوخها » (١) •

أما والنبى والمسلمون (الأمة) تريد الخروج من هذا الضيق القبلى الى رحابة الأمة ، فلابد من تغيير الأساس الاجتماعى السياسى الاقتصادى والعسكرى بالقطع • وبذلك يلغى الفروق السائدة

فى الجاهلية بتغيير شكل الدولة حيث يتراجع شيخ القبيلة وعصبيته ونسبه ويحل النبى الموحى اليه ، والأمة ذات القانون المدون في القرآن والمشروح فى السنة محل التقاليدالموروثة بلا معنى • وبالتالى تتغير المعتقدات والنظم لأن مصدر المعرفة قد تغير ، وهو مصدر مقدس •

والغاء الاسلام للعصبية يعنى الغاء الوراثة فى الرئاسة ، لأنه قد أسس الشورى والاجتهاد والنسب الى الاسلام (الذى يجب ما قبله) فقد ترك أمر الرئاسة بعد النبى للشورى والاجتهاد والاجماع ، وهذا ما يحدث فى الخلافة كما سنبين بعد قليل •

ويقف الاقتصاد سندا جوهريا فى تأسيس وبناء الدولة لذلك جعل الاسلام (المال مال الله) وجعل عطاءه من الله للقسمة بين الناس ومن هنا

جعل فى أموال الاغنياء حقا للسائل والمحروم والفقير والمسكين وابناء السبيل • لذلك ـ أيضا ـ سن الزكاة ـ على اختلاف أنواعها ـ والصدقة وجعلهما قرضا حسنا ، كما سن الجزية فيما بعد لتمويل الجيش وكفالة المحتاج •

بهذه التغييرات شكل النبى الدولة الاسلامية ، وجعل لها نظامها فى شتى المجالات والتى لخصها فى خطبة الوداع • وبذلك حول الاسلام (القبيلة) الى أمة ، والعصبية الى دولة لها نظمها • وتعد وفاة النبى نهاية مرحلة الدعوة والاعلام وبناء الدولة اذ مهدت للخلافة والفتوحات فيما بعد •

فقد بدأ نظام الخلافة الاسلامية منذ وفاة النبى حتى سيطر الاستعمار الحديث على منطقة الشرق كلها ، وخلال هذه المرحلة الطويلة جدا أخذت الخلافة صورا متعددة ، وتحولت من منزلة دينية كما حدث فى تولية أبى بكر وعمر وعثمان ،

الى منزلة سياسية فى المقام الأول يختلف عليهـــا وتقوم الحرب بسببهـا ، بل يفترق المسلمون الى طوائف وشيــع واحــزاب وجماعــات متصارعــة بسببها .

ويعنى ذلك أن الخلاف على الخلافة تحول الى خلاف على الادارة والحكومة ، وكان التوفيق — فى البداية — حليفـا لمن أراد تجميع قوى المســلمين تحت راية خليفــة يرتضيه الجميع أو الأغلبية . وبذلك نجح عمر فى حســم الخــلاف الدائر بين المهاجرين والأنصــار وهم يعرضون مواقفهم ممن يخلف النبى ، اذ كان كل من قادتهما يرتجيهـــا لنفسه أو لقومه ، فكان أن صرح عمر بن الخطاب بمبايعة أبى بكر خليفة لرســول الله ، فلم يعقب أحد من المسلمين لعلمهم أنه « ثانى اثنين اذ همــا فى الغار » ولأنه أول الرجــال المســلمين ، وأول المصدقين ، وأول من ترك له النبى الصلاة بالمسلمين فى لحظات مرضه الأخير ، ثم لجهاده وتضحيته ولأنه

والد أم المؤمنين عائشة ، الى غير ذلك من صفات الحكمة ودماثة الخلق وكبر السن ، وهى مؤهلات يرتضيها العرب والمسلمون كافة .

كذلك اختير عمر بن الخطاب اختيارا حاسما من جانب المرشحين للخلافة بعد أبي بكر ، ولقد صنع الامامان / الشيخان أبو بكر وعمر دعائم للاسلام فى التاريخ والحضارة ، مما ضمن للاسلام أن يقف قويا رغم كل الخلافات فى مواجهة الحضارات الأخرى التي أرادت أن تنقض على الدين والأمة الجديدة .

فقد حمى أبو بكر حدود الدولة ، ودون (الكتاب / القرآن) وحماه من خطر النسيان أو الخلاف على قراءته ، وامتد عمر أمير المؤمنين بفتوحاته الى المشرق والمغرب ، وبذلك وسع من الدولة وجعل من الجزيرة العربية ومن مراكز الحكم الاسلامي عمقا استراتيجيا لا يقربه الغزاة

ولا يقدر عليه المختلفون المرتدون الذين قضى عليهم نهائيا فى هذا العصر .

وقد أعطى عمر بن الخطاب للدولة الاسلامية نظاما خاصا فى الادارة اعتمد على احصاء المسلمين وتاريخهم واعتمد على تسجيل السجلات ووضع النظم الادارية موضع التنفيذ والاحترام وبذلك منع الارتجال فى ادارة شئون المسلمين . وفى هذه الخلافة العمرية اختلطت الحضارة العربية بالحضارات الفارسية والرومية وتكونت حضارة اسلامية على المستوى السلوكى والادارى ، مهدت للالتقاء الحضارى فى العصر العباسى الأول .

ولقد كانت الرؤية المستقبلية لعمر بن الخطاب شمولية لا تفرق بين عربى وعجمى ، أو بدوى وحضرى ، لأنه كان يعلم ان تذويب الفروق هو منبع الوحدة الاسلامية خاصة والبلاد المفتوحة كانت لا تزال قريبة العهد بدياناتها وعقائدها

ولغتها وثقافتها • فكانت الرؤية المستقبلية عند عمر متسمة بالتسامح مع الحزم • لذلك يمكن أن نقول ان فترة خلافة الشيخين أبي بكر وعمر فترة واحدة ، اذ كانا متعاونين متشاورين فى كل الأمور اليومية والمستقبلية ، فقد لازم عمر شيخه أبا بكر ،وكان مسئولا معه •

لكننا نستطيع أن نقول ان هذه الفترة الطويلة (المقدرة باثنتى عشرة سنة)هى فترةاقامة الدولة، الأمر الذى لم يزد فى بروز تجليات الحضارة الاسلامية شيئابعد عصر النبوة، اللهمالا الترتيبات الادارية والاقتصادية الخاصة التى اجتهد فيها عمر بن الخطاب والتى يلخصها مصطلح « العدالة » و « التوازن » فلم تبغ فئة ولا دين على دين ولا قومية على قومية فقد استمد عمر موقعه من خضوع اختيارى من المسلمين ومن تركيب طبيعى فيه يسعى نحو التوازن والعدالة والاستقرار والاستمرار •

وقد استنفذت الفتوحات والغزوات قوة عمر واحتاجت هذه الفتوحات الى مركز سياسى واقتصادى مستقر وقوى واحتاجت، الى شخصية القائد عمر بن الخطاب الذى عمل تحت لوائه بقية الصحابة دون اعتراض أو صراع على سلطة أو امارة ، على عكس ما سيحدث فى خلافة عثمان بن عفان وما تبعها من أحداث الفتنة الكبرى المروعة التى انتهت بمقتل على بن أبى طالب ، وتولى معاوية بن أبى سفيان الخلافة والتى أسس عليها الدولة الأموية .

حافظ عثمان بن عفان على مكتسبات الدولة الاسلامية وحافظ على وحدة المجتمع الاسلامى بتأمين الحدود ، وتوحيد النص القرآنى والقضاء على الخلافات فى القراءات ، ولم يخض الا معركة حربية (بحرية) واحدة فتحت المجال للمسلمين أن يمخروا البحر وقد كان عائقا نفسيا لديهم يخافونه بل أسس أول أسطول بحرى (حربى) اسلامى .

وعلى الرغم من أن تولية عثمان تمت بشكل شرعى هادىء ، الا أن خطة عثمان فى ادارة شئون البلاد الاسلامية قد جنحت فى عهده الى قليل من الحرية والحركة بين المسلمين على غير ما كان فى خلافة عمر ، وكأنه كان يفك بعض القيود التى فرضها عصر الفتوحات، ولكن ظهرت الى جوار هذه الحرية شرائح الأغنياء التى اختفت فى عصر عمر ابن الخطاب ، حتى أننا نستطيع أن نقول مع العقاد ان عصر « أبى بكر كان هو العصر الذى نشأت فيه الدولة الاسلامية وعصر عمر كان هو العصر الذى تم فيه انشاؤها وعصر عثمان كان هو العصر الذى تكون فيه المجتمع الاسلامى بعد نشأة الدولة الجديدة ، فبرز فيه نظام جديد على أساس الثروة المجلوبة من الأقطار المفتوحة وعلى أساس الولايات التى تولاها بعض الطبقات المرشحة للرئاسة من العلية وأشباهها » (٢) .

وكان ذلك انعكاسا طبيعيا لمجتمع اسلامى له حضارة ودولة خرج من دور القائد العسكرى الى حكم القائد المدنى أن صح هذا الاستخدام • الا أن التوسع فى استعمال الأقرباء واعطائهم السلطة السياسية فى بعض الأقاليم والولايات قد أضر بالخليفة الثالث جدا فبدأ المجتمع الاسلامى فى الدخول الى عصر (الخلاف) لا عصر الخلافة ، أعنى بدأت الدولة الاسلامية تشهد التصريح بالاختلاف مع السلطة ونقدها وتأليب الناس ضدها وهذا ما سبب تلك الاضطرابات السياسية والاجتماعية التى أطاحت (بالعدالة) و (التوازن) اللذين قاد بهما (عمر) دفة السلطة فى عهده • وبذلك عمد كثير من الناس الى تغيير السلطة بالقوة بعد أن ظهر عثمان فى صورة الحاكم المقبل على الآخرة •

فما كان الا أن تجمع بعض المسلمين وأحاطوا ببيت عثمان حتى قفز الى سطح منزله بعض الرجال

فقتلوه ، وهو صائم قارىء للقرآن وكان الحسن والحسين يحرسان بيت عثمان من أسفل في حين صعد الجناة من فوق أسطح المنازل • وما أن قتل عثمان بن عفان شهيدا حتى نادى معاوية بن أبى سفيان) (بدم عثمان) واتهم عليا وابنيه بمساعدة الجناة على هذه الجريمة وكان يقصد من ذلك اقصاء على وابنيه عن فكرة الخلافة وتوطيد الأمر لنفسه للحصول على السلطة وقد نجح في ذلك •

وقد أدت سياسة معاوية هذه الى احراج موقف على (على الرغم من مبايعة على بن أبى طالب بالخلافة) ذلك أن عليا بعد عن الحجاز الى الكوفة نتيجة لخلاف مكة والمدينة فيما بينهما ، وفي الوقت نفسه كانت القبائل البدوية تنفس على قريش غنائم الولاية ومناصب الدولة والخلافة (النبوة من قبل) وقد تمكن معاوية من السيطرة على الشام ولم يكن أمام على الا (الكوفة) التى تخذلته في

نهـاية الصراع المنتهى بمقتـل الخليفة الراشـد الرابع .

ومنذ هذه اللحظة نرى « أن المسلمين قد أقاموا سياستهم على المنافع العملية ، وعدلوا عن اقامتها على الوحدة الدينية واللغوية والجنسية أيضا .(٣) وامتدت هذه السياسة العملية الى زمن سـقوط الخلافة وتلاشيها ثم انقسام البـلاد المسـلمة الى قوميات تدافع عن استقلالها أولا ثم عن الاسـلام عند التعرض لخطر عام كما ذكرنا من قبل . وقد بدأ ذلك عند هروب عبـد الـرحمن الداخـل الى الأندلس فارا من قبضة العباسيين ، مؤسسا لدولة أموية هناك » فقد كانت الدولة الأموية فى الأندلس تخاصم الدولة العباسية فى العـراق .. فلم يأت القرن الرابع للهجرة حتى قام (العالم الاسلامى) وقامت الدولة الاسلامية وحتى ظهرت القوميات(٤) والحدود السياسية المستقلة فيما بعد .

ولذلك أسبابه الكثيرة . وأول هـذه الأسباب الخلاف السياسى بين على ومعـاوية ، ثم الـوراثة داخل البيت الأموى ثم البيت العباسى ، الأمر الذى جعل الفقهاء يؤصلون للخلافة ويحددونها من منظور ذهنى نفعى مما جعل نظرية الاسلام فى الحكم ونعنى بها الخلافة كما تصورها الفقهاء .. منفصلة عن الواقع الاجتماعى والسياسى - تجـاوزها الواقع بمراحل كثيرة ولكنها بقيت فى الأذهان على الرغم من ذلك تضفى على كل عمـل يستهدف المطالبـة بالحكم ، واقامة الخلافة (٥) عـلى حين فقـدت ، الشورى مصداقيتها ، فأصبحت فى يد الأقوى :

وبعد أن كانت الفتوحات الاسلامية حتى عهـد عثمان حلا حاسما للشعوب الداخلة الى الاسلام ؛ حاولت هذه الشعوب ـ نتيجة لهـذه الخـلافات ـ العودة الى حالتها قبل الاسـلام محتفظـة بالدين الاسلامى رافضة لسلطة سياسية من خارجها حتى وان كانت باسم الدين فى الوقت الذى حارب فيه

الخلفاء الخارجين على الدولة باسم (الدين) . وسوف نرى ترجمة لذلك في الشعر بخاصة أعني شعر الفتنة الكبرى ، وشعر الأحزاب والفرق الاسلامية بل في شعر الخروج على القصيدة العربية القديمة .

وجدت الدولة الأموية في العروبة خلاصا لها ووجدت الخلافة العباسية في الاسلامية خلاصا لها ، ووجدت الشعوب في القومية مع الاسلامية خلاصا لها ، ذلك أن (تراث) كل شعب يظل فاعلا بطرق متعددة وقد لاحظنا ذلك في نظرية الحكم بعد مقتل علي ، فقد كانت الخلافة ذات نظام ونظرية دلت عليها الحاضرة كما أسلفنا . فبينما هي في المدينة المنورة أيام الراشدين كانت السيادة والنفوذ للروح العربية ، وكان نظامها / يتفق مع طبيعة العرب . فلما أصبحت دمشق عاصمة الخلافة في عهد الامويين تأثرت الخلافة بالأنظمة التي كانت موجودة لدى الامبراطورية البيزنطية ، وأصبح

نظام الخلافة أشبه شيء بالنظام الملكي أو القيصري ، وكذلك تطور نظام الخلافة في عهد العباسيين التي قامت على أكتاف الفرس وأقامت عاصمتها في بغداد فظهر تأثير النظام السياسي الفارسي في كل مظاهر الخلافة العباسية وخاصة في العصر العباسي الأول (٦) •

لذلك تحاورت هذه الحضارات مع الحضارة العربية ثم تحاورت داخل الحضارة الاسلامية بما استعارته الحضارة الاسلامية من نظم الحكم فيها ، ومن نظريات السياسة التي غيرت شكل الخلافة الاسلامية التقليدية الى خلافة تتخذ أبهة الملك والسلطان •

وهذا ما حدث بعد سقوط الخلافة العباسية اذ ظلت السيادة الاسمية للخليفة الذي وضع كرمز سياسي لا فعل له ولا رجاء منه • لذلك نرى الحكام المسلمين يسمون بالسلطان والأمير • ولما حل

الاستعمار العثمانى باسم الدين الى منطقتنا ، نصب الحاكم العثمانى نفسه خليفة للمسلمين بالقوة وشجعه ظلم المماليك فى الولايات وأضعف جيوشهم . ففتح العالم العربى كله وأخضعه لسلطانه واستقلت ايران وعادت الى شخصيتها القومية ولغتها القومية كما كانت قبل الفتح وان اتخذت الاسلام دينا رسميا والتشيع مذهبا فقهيا .

وظل العثمانيون حوالى أربعة قرون يحكمون باسم الدين ، لذلك فالفترة المملوكية والعثمانية قد شهدت تجمد صرح الحضارة الاسلامية . ولقد انعكست روح العصر هذه وما سيطر فيها من تفكير خرافى على عقول الناس خاصتهم وعامتهم ، ولكن من الانصاف للحقيقة ان نشير الى أنه على الرغم من هذا الجو الخرافى السائد والخانق للعقل وفاعلياته ، فقد كانت هناك نخبة من العلماء والمفكرين استطاعوا ان يخترقوا سياج العصر وأن : يرجعوا الى أمهات الكتب الدينية والأدبية

والفلسفية . ولكن هذه الفئة القليلة التى كانت تعيش في الغالب فى بلاط الملوك والأمراء لم تكن تستطيع الجهر بآرائها أو التأثير فى الأوضاع الفكرية السائدة . (٧) .

وظل الحال كذلك حتى صدمتنا الحضارة الغربية فى موجات بدأت بالحملات الصليبية ، ولم تتوقف ، اذ عادت مع الحملة الفرنسية على مصر والشام (١٧٩٨) ثم فى حملة فريزر على رشيد (١٨٠٧) ثم فى الاحتلال الفرنسى والانجليزى والايطالى والبلجيكي للوطن العربى وللعالم الاسلامى . أى كان غزو هؤلاء الأوربيين للدولة/ العالم الاسلاميين اعلانا عن اختناق الحضارة الاسلامية وهزيمتها تجاه الحضارة الأوروبية الصاعدة فى حين نقلت الحضارة الأوروبية عن حضارتنا الاسلامية علومها ومعطيات تقدمها وطورته وعادت به لتستعمرنا .

وقد تركت الحضارة الأوربية عادتها وتقاليدها في الحكم والسياسة وادارة شئون البلاد فى العالم العربى والاسلامى فحلت النظم الليبرالية والديمقراطية محل الشورى بكل أجهزتها ومؤسساتها • وحلت (الحداثة) محل التقليديا المحافظة) •

وقد أدى أنهيار الجانب المادى والعلمي والتجريبى فى الحضارة الاسلامية الى الخضوع لمنجزات الحضارة الغربية وعلومها التجريبية على الرغم من أن هذه المنجزات قد أسست على الأوليات الحضارية (المادية والتجريبية) الاسلامية • وظل لحضارتنا جانبها الثقافى والدينى والمعمارى والسلوكى التقليدى الذى حفظه الشعب وعاش به بعيدا عن السلطة الغربية والمستعمر الغربى

كما تأسست في أبناء حضارتنا المنهزمة رغبة فى التواصل مع الحضارة المنتصرة حتى تلحق

بركب الحضارة الانسانية فى العالم الحديث ثم فى عـالم اليـوم • فظهرت التأثرات بمناهج الفكـر والثقـافة والتفلسف الغـربى • وأصبح الفـكر وأصبحت الثقافة والفلسفة مستفيدة من مثيلاتها فى الغرب • ووضح لدينا أن هناك : ـ

- منهجا محافظا تقليديا •
- منهجا متحررا غربيا •
- منهجـا تأصيليـا يحـاول الربط بين المنهجين السابقين حتى يستفيد من تراثنا قبل هزيمته ، ومن حضارتنا قبـل وقوعهـا ومن المنجـزات الحديثة التى تدفعنا نحو الحياة المعاصرة •

ولكننا نخلط أحيـانا بين التيـار الغربي فى التفكير وبين الاستعمار، ونخلط أحيانا بين التيار السلفى وبين التخلف والعودة الى الوراء ، ونخلط بين المنهج التأصيلى وبين التلفيق •

لذلك نحن نحتاج الى دراسة التيار الغربى بمناهجه ومذاهبه ومؤسساته ، والتيار السلفى بمدارسه وتاريخه واتجاهاته ، والى دراسة المنهج التأصيلى المتاح لنا الآن حتى لا نقع فى الوهم والخلط وحتى نعرف ماذا نريد من الغرب وماذا نريد من تراثنا ونعرف أين نحن الآن ؟ · واين تقف حضارتنا ؟ وكيف تحيا ؟ · وكيف تتواصل ؟ وكيف يقف الانسان العربى / المسلم الآن من الحضارة الانسانية المعاصرة ؟ ·

واعتقد ان المنهج التأصيلى هذا يقوم على علمية الفكر ، أعنى ان نقف موقفا علميا من تراثنا ومن واقعنا وذاتنا ومستقبلنا ، بهدف التأصيل لأن التأصيل سيساعدنا على الحفاظ على هويتنا وسيساعدنا على المعاصرة · لأن العلمية هى روح العصر ، وبهذه العلمية نقف موقفا موضوعيا من

مشكلاتنا ومشكلات عصرنا بل بالموضوعية يمكن ان نتفق ونتحاور ونرتضى التنوع والخلاف فى اطار وحدة الهدف • وسوف نبين هذا الأمر عند الحديث عن التراث وعن وظيفة الشعر فى الدولة الاسلامية •

هوامش الفصل الثانى

(١) محمد عابد الجابرى : **العصبية والدولة** ، دار الشئون ، الثقافية العامة (آفاق عربية) بغداد ، ص ٢٦١ ، وفكرة الجابرى ـ هنا ـ تفصيل لفكرة ابن خلدون .

(٢) عباس محمود العقاد ، **عبقرية الامام** ، دار المعارف القاهرة يونيه ١٩٥٢ ، ص ٣٢ .

ويلاحظ هنا أن خروج الصحابة رضوان الله عليم الى حيز الامارة والسلطة والحصول على ثروات شرعية بحكم اشتغالهم بجمع الخراج والجزية قد فتح لهم آفاقا جديدة فقد رأوا بلادا وحضارات ونظما ادارية جديدة ، كما سمعوا لغات مختلفة وشاهدوا سلوكا اجتماعيا جديدا ، ولذا خرجوا من كونهم عادين الى كونهم حاكمين ومن حياة اقتصادية عادية الى حياة اقتصادية غير عادية عادت عليهم بثروة من نصيبهم فى الخراج ومن رواتبهم العالية .

(٣ ، ٤) طه حسين ، **مستقبل الثقافة فى مصر** ، مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر ١٩٣٨ ، ص ١٦ .

ونلاحظ أن القومية غير الشعوبية لأن القوميات تنحو فى النحو العام نحو الاستقلال والحرية والعودة الى شخصية مستقلة دون أن تتعادى مع

الاسلام أو مع العروبة · أما الشعوبية فهى عامل هدم ضد كل ما هو عربى واسلامى · ولذلك تواصلت الشعوبية مع الزنقة ، فى حين وقفت الحركات القومية ضد أعداء العروبة والاسلام طوال التاريخ ، فعلى سبيل المثـــال كانت دولة ابن طولون المستقلة فى مصر موجهة ضد الخضوع للخليفة العباسى أى أنها تمرد سياسى عسكرى ، كما كانت الدولة الأيوبية مخلصة للعالم العربى الاسلامى من الاحتلال الصليبى ·

(٥) محمد عابد الجابرى ، **العصبية والدولة** ص ٣٦ ·

(٦) محمد أمين صالح ، تاريخ الدولة الاسلامية مكتبة سعيد رأفت ، الطبعة الاولى ١٩٧١ ، ص ٧٤/٧٥ ·

(٧) محمد عابد الجابرى ، **العصبية والدولة** ، ص ٤١/٤٢ ·

الفصل الثالث

السياق التاريخي والاجتمــاعي والفنــي
للشعــر العــربي القديــــم

أما الشعر العربى فقد حظى باهتمام خاص طول التاريخ العربى والاسلامى والى الآن • وقد قامت الموروثات بدور مهم فى نقل القيم الجمالية والتشكيلية جيلا بعد جيل •

والحديث عن شعرنا العربى ، لابد أن يشير الى سياق تاريخى واجتماعى وأدبى ، لأن هذا الشعر كان نتيجة لأسباب ، ومحصلة لحالة الوطن العربى/ الاسلامى • فقد سيطر على الفكر العربى قبل الاسلام فكر العرب فى الجاهلية ، والذى ارتبطت بسببه الصلات بين واقع الشعر العربى وبين الحياة

العربية ، وكانت القصيدة العربية الجاهلية دليلا عليهما ، ومحافظة فيه علـى شكل خاص للقصيدة العربية ، أعنى وحدة الوزن والقافيـة ، وتنـوع الموضوعات ، واتشاح الصور الشعرية بألوان شتى من العقائد الجاهلية والموروثات الفنية والدينية والاسطورية التى عكست حيـاة العـرب رغـم كل الخلافات السياسـية القائمـة بين القبـائل فيما بينها . وكان الشعر الجاهلى يخرج من بؤرة الحياة (الحرب) التى تمحورت حولها أغراض الشعر فى هذه المرحلة من (مدح) و (هجـاء) و (فخـر) و (حماسـة) و (رثاء) و (وصـف) وأخـيرا (الغزل) و (الاعتذار) ويغلف كل هذا (الحكمة) التى هى جوهر الفـكر العربى والذى تبدى فى المثل الأعلى الجمالى : « المبالغة » فى وصف البطولة والشجاعة بخاصة . وكان وراء هذه المبالغة طبيعة الحيـاة ومكوناتهـا وطبيعة الصراع القـائم على

منطق « القــوة » و « البقـــاء للأقوى » . ومن ثم لابد أن يبالغ العــربى فى كل حين ولابــد أن يكون « حكيما » أيضا فى كل حين ، ليخفف من وطأة « الانفعال » الذى يؤدى على مستوى الواقع الى « الحرب » و « الثــأر » و « فــراق الاحبــة » بالاضافة الى حياة التنقل فى البادية وراء «العشب» و « الكلأ » والتنقل بين الشام واليمن ومصر والهند وفارس فى رحلات التجارة وتبادل المنافع والرحلة بين القائل العربية للسفارة و « التوسط » أو لشن « الغارات » .

كل هذا « القلق » وسم « العربى » بالحركة ، ووسم الشــعر العربى « بالتنقل بين الأغراض » والايمان بموروثات الصحراء وعبادتها وطقوسها السماوية وغير السماوية ، العربية الخالصة وغــير الخالصة التى استمدتها من « رحلاتها » وعلاقاتها وشكلت الخبرات ، الجمــالية والفنيــة والأدبيــة

والشعرية لخدمة هذه الحياة · وكانت ـ كما أسلفنا ـ انعكاسا لجوهر الواقع العربى فى حركته الدائبة « ويدهى أن المثل الأعلى الجمالى ·· يعكس (جمالية) القوة الاجتماعية المسيطرة فى المجتمع ··/·· يعكس جمالية مرحلة تاريخية كاملة من حياة المجتمع ، ولا يتغير هذا المثل تغيرا حقيقيا الا بتغير هذه المرحلة » (١) ·

وتمتع الشاعر العربى بحرية التعبير «النسبية» فى هذه المرحلة الأولى ولم نسمع عن شاعر حوكم بسبب قصيدة ، كما لم يحدد أحد « من النقاد » ما يجب ان يقوله « الشاعر » بل كان حس الشاعر، ورؤيته الخاصة/العامة فى آن هى محركه الأول ، وكانت الموروثات الشعرية والاسطورية والعقائدية تمثل قانون هذا الشاعر · وفى ظل عصر الحروب عبر الشاعر عن نفسه وعن قبيلته ، اهتداء بمثلها الأعلى الجمالى والاجتماعى والشعرى ·

وفى زعمى ان الشعر العربى قد سبق بنماذج أدبية عربية كانت خليطا من الشعر والنثر والحكمة والخرافة والاسطورة ، اندثرت فى معظمها ولم يبق لنا منها الا سجع الكهان ، والخطب والرسائل وبقاياحكايات خرافية وأسطورية ٠ وفى هذا توجه لفكر ودين وأدب ، وفن العرب فى عصورهم الأولى التى جعلت من الأدب فى هذه العصور أدبا شعبيا فى وقت لم تفرق فيه القبائل بين ما هو للحاكم وما هو للمحكوم ، انما كانت تقاليد « الحرب » و « الحكم » شائعة وتقسيم كل شىء وفق نسب اصطلح عليها أصحابها واضحة أمام الجميع يلتزمون بها بوازع جماعى ٠

وفى اعتقادى ان البقايا الموروثة وجدت تجليها فى فن العربية الأول « الشعر » الذى ناسب حياتها ولسانها ولغتها القائمة ٠ واذا كانت « الأساطير هى الشعر من حيث العمل ٠٠ فقد ماتت تلك الأساطير لأنها أدت مهمتها التطويرية

ولم يعد العالم بحاجة اليها ، انطلاقا من العمل الجماعي وتطويرا له عبر القرون ·· وهكذا فان الأساطير الشعرية انقرضت في حين لا تزال ، الصورة الشعرية التي هي أسطورة الفرد ، تحكم الانسان ·· فالأسطورة الشعرية خلقت عن وعي جماعي ، وترجع الصورة الشعرية الى ذلك الوعي في مشروعيتها وليس مجرد صدفة أن ترى في الصورة الشعرية ·· اشكالا ونبضات مشتقة من الاساطير ولكن من طبيعة الصورة والشعر في جانبه الاستعاري أن تستحضر ذلك الوعي ، وكأن الانسان في فرديته ــ ولايزال ــ يبحث عن الضمان العاطفي في احساسه بالانتماء الى الجماعة ، ليس الانتماء الى الكائنات المشابهة ، وانما الى كل من يحيا العالم وحتى مع الأموات » (٢) ·

وقراءة سريعة للشعر الجاهلي تعكس لنا هذا المبدأ النقدي المهم ، وهو حياة الموروث في الصورة الشعرية التي هي الدليل الوحيد على تواصل

الشاعر الجاهلى مع موروثه فى مختلف تجلياته وقراءة سريعة لشواهد كتاب « الاصنام » لابن الكلبى « ولشواهد لسان العرب » ، تكشف هذه التجليات كما تكشف عن التواصل الموروثى والتصوير الجوهرى لواقع الحياة الجاهلية .

وحينما تغيرت الحياة فى العصر الاسلامى ووضع الاسلام سمات ووظائف للشعر ، تمييزا له عن كلام النبوة ، يبدأ ما وضعه الاسلام بنفى الشعر والشاعرية عن النبى محمد (ص) وعن « القرآن الكريم » ونتيجة للظرف التاريخى والاجتماعى الذى اضافته ظروف الدعوة الاسلامية وضع القرآن الكريم فى آيات محكمات صفات الشاعر الذى يريده الاسلام ، ولم يضع صفات الشعر ، لأن الفيصل عنده فى الوظيفة « التى يقوم بها الشاعر فى المجتمع الجديد ، والتى تحددت فى «الايمان» «العمل الصالح» «ذكر الله» * وذلك لأن المثل الأعلى الجمالى اتجه الى القرآن كنص مقدس

منزل من عند الله ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، واتجه المثل الأعلى الانسانى الى النبى (ص) الذى لا ينطق عن الهوى، اذ كان قرآنا يمشى على الأرض. كما اتجه المثل الأعلى الاجتماعى الى مكارم الأخلاق بديلا عن « الغواية » « الهيام » « الكذب » عند الشعراء فى نظر الاسلام ، أى « الشر » وبديلا عن النص الأدبى « الشعر ، الحكاية ، سجع الكهان » وبديلا عن المثل الأعلى البطولى المبالغ فيه .

لذلك توظف الشاعر « كوسيلة اعلام » وتوظف الشعر لخدمة النص الديني ، ليشكل مبادءه وتعاليمه ، فاختفت ذات الفرد ، وخرجت ذات الجماعة ، وأصبح لسان الشاعر لسانا مرددا مكررا لما حدد له ، فاختفت أغراض شعرية كالغزل والهجاء والفخر بالذات والقبيلة وظهرت أغراض جديدة كالدفاع عن الدين والنبى . وصياغة

مبادىء الاسلام والرد على اعدائه كما ظهرت القصيدة فى شكل جديد ٠

ولكن ظلت « الحكمة » التى سادت روح الشاعر الجليل فى الجاهلية ، متواصلة مع «الحكمة» التى هى « ضالة المؤمن » فى الاسلام ٠ وكان بيان النبى (ص) وكانت تعليقاته بمثابة الصياغة النظرية للشعراء ٠ وكان قوله « ان من الشعر لحكمة ، وان من البيان لسحرا » شعارا للشعر والشعراء لذلك أقول : ان العلاقة بين الشعر والحكمة بمفهومها الذى يتسع لقول الحكماء والأنبياء وكبار القوم والوعاظ والشعراء الجليلين علاقة تفسر الصياغة التجريدية للمفاهيم ، ولذلك أيضا أقول مع جابر عصفور « تنطوى الصلة بين الشعر والحكمة فى تراثنا على دلالات متقاربة ، تصل بين الشاعر الحكيم وبين الكاهن والعراف مثلما تصل بينه وبين النبى الملهم صاحب البصيرة وتصل أخيرا بينه وبين الفليسوف «محب الحكمة» ٠

واذا كانت الكهانة والعرافة تقترن بالتنبؤ والكشف في التصورات الجاهلية ، فان حكمة النبوة تتقارب مع حكمة الفلسفة فى التصورات الاسلامية الأحدث وذلك على أساس من الاتصال ب « العقل الفعال » الذى تفيض حقائقه على مخيلة النبى أو تبيح نفسها لما يسمى « العقل » المستفاد الذى ينطوى عليه الفيلسوف .. وذلك على أساس من المخيلة التى تميز طبيعة ابداع الشاعر ، وطبيعة النبوة فى آن فتعيد الاتصال القديم بين الشعر والنبوة ولكن تضعه فى سياق جديد، أعنى سياقا يمكن .. من الحديث عن عجائب القوة المتخيلة فى الشعر ، والدفاع عن رسالة الشاعر على السواء وذلك ليوحد المتصوفة بعد ذلك بين المخيلة والمعراج الذى يصعد به الصاعد الى عالم الحقائق المطلقة .»(٣) وهذا ما يفسر قول ، النبى (ص) لحسان بن ثابت « اهجهم وروح القدس تؤيدك ، أو تؤازرك » .

وسوف تتضح هذه الصلة أكثر عند شعراء الرومانتسية العربية فى العصر الحديث ، فقد

أوضحوا صراحة هذه الصلة وجعلوا الشـاعر نبيا مجهولا كما نجده عند الشـابي ، أو رحمانا عنـد العقاد ، أو الها ونبيا عند جبران ٠

ولقـد أثر التوظيف الاسلامى ، عـلى شـكل القصيدة ، وعلى أغراضها وتحررها من تقنيـات القصيدة الجاهلية ، حيث تدخل الى الغرض مباشرة فيصغر حجمها ، وتختفى المعلقات فلا نسـمع عن معلقات اسلامية مع أن بعض أصحاب المعلقات عاش حتى ظهر الاسلام٠ وتخلصت من الموروث العقائدى والأسطورى الذى ارتبط بطقوس عبادة الأصنام، والطوطم وحل النص الدينى محل النص الأدبى. لذلك قام الشعر بدور هامشي اذا قيس بدور النص الديني ، كما خلا دور الشاعر من صياغة أخلاق الجماعة لأنه اعتمد على النقل من المصادر الدينية المقدسة ٠

وظل مبدأ مهم في الفكر العربي متوارثا في الفكر الاسلامي وهو مبدأ الثنائية الضدية في الانسان (العقل ≠ الهوى) وفي المجتمع (الجماعة ≠ الفرد) وفي الطبيعة (تعاقب الضدين) وفي القيم (الخير ≠ الشر) وفي الميتافيزيقا (الله ≠ الشيطان) . واستمرت هذه الثنائية الضدية في تجليات متعددة تبدأ من الشعر الجاهلي ، وتمر بالقرآن الكريم ، ولم تقف عند الشعر في مرحلته الاسلامية الأولى .

ويكمن «القضاء والقدر» وراء هذه المطلقات الثنائية ليفسر العدالة غير المفسرة ، ويصبح القدر وسيلة القوة الأعلى لهذا الكون في الثواب والعقاب ، في الدنيا والآخرة ، لذلك يرتبط القضاء والقدر بالدهر والزمن ، والمصائب والمحن ، وليس هناك ديوان لشاعر عربي في مرحلته التقليدية أو الاحيائية ، يخلو من هذه العبارات أو يخلو من تأثيرها المفهومي المجرد

عن الانسان ، ولدينـا عشرات ومئات من دواوين العرب ومختاراتهم تحت أيدينا تثبت هذا الزعم .

. وبانتقال النبى (ص) الى الرفيق الأعلى ، انتقل النبى (الحاكم المشرع ، مفسر النص ، والوحى) بعد أن أعلن القرآن الكريم أن الرسالة قد تمت ولا يبقى على الجماعة الا التطبيق فقد اكتمل النص النظرى وانتقل النص السلوكى ، وتوزعت كل هذه الصفات التى كانت تتوحد فى رجل واحد هو النبى (ص) . فى رجال عديدين أخذ كل منهم احداها . لم يكن لأى رجل - فيما بعد - قداسة النبى(ص) بل كان له احترام الخليفة الذى لا يوحى اليه ، والمعرض للصواب والخطأ فتمرد المرتدون وكان الشعر من وسائلهم فى اثبات تاريخهم وأحقيتهم فى المشاركة فى حكم الجزيرة العربية ، كما كان الشعر أحد وسائل المتنبئين فى اثبات نبوتهم مثلما حدث من الأسود

العنسى وسجاح التميمية ومسيلمة وآخرين ، لكنه شعر لم يدم نظرا لانتصار أبى بكر وعمر عليهم ، فاختفى انتاجهم وساعد على اختفائه ـ واختفاء نصوص أدبية نثرية كثيرة ـ تعارضه مع المفاهيم الاسلامية .

وانشغل عمر بن الخطاب والمسلمون بالفتوح، وكان القرآن هو النص الرسمي الذي يتحركون من خلاله . وكان للفتوحات أثر كبير على الشعر ، فقد دخل المسلمون بلادا كثيرة ، مختلفة عن جزيرتهم مثل : مصر والمغرب ، وبلاد الفرس وبلاد الروم والأندلس (فيما بعد) فقارنوا فى الشعر بين بلادهم والبلاد الجديدة ، ووصفوا الطبيعة الجديدة واغتنى قاموسهم، وأطلعوا على أنواع شعرية جديدة لم تكن معروفة بهذا الشكل لديهم (مثل الموشحة والدوبيت) وشغل وصف الطبيعة عقولهم وشعرهم فى الأندلس بخاصة .

وبمقتل عمر ، ثم عثمان، ثم على ، على التوالى، تفرقت الجماعات العربية من جديد • فتفرقوا شيعا ، وأحزابا • وكان لكل شيعة شعراؤها خطباؤها وزعماؤها فكثرت القصائد والتحاورات الشعرية ، حيث صاغ كلّ شاعر فكر وحجج حزبه السياسى وأفكاره فعاد الشعر من جديد الى ازدهار يتناسب مع صحوة المسلمين وزاد من الازدهار الشعرى دخول أفكار حضارات مهزومة على يد المسلمين وجدت فرصة العودة لحظة صراعهم وخلافهم ، خاصة وقد انفصلت الدولة الأموية عن تراث الخلفاء الراشدين واتصلت بموروثاتها الجاهلية من جديد •

وقد ظهرت فى هذه الفترة مذاهب دينية ذات أصول فكرية مختلفة باختلاف أصحابها وتوجهات زعمائها ، فكانت مذاهب : السنة والشيعة وكانت جماعات المرجئة ، قد توسطت الموقف ، كما ظهرت بدايات الزهد والتصوف كموقف معارض لهذه

الأحـزاب والصراعات ، فهم قوم آثروا السـلامة وسط المذابح ، واستبطنوا ذاتهم بعيدين عن متاع الدنيا القليل ٠

وقد انقسمت جماعات السنة والشيعة والزهاد والمتصوفة الى مذاهب فرعية لا حصر لهـا ، أخذت فيما بعد الدولة الأموية توجهات اقليمية خاصة ٠

وكان لانفصـال الدولة الأمـوية عن سـياق الخلافة ، واتصالها بسياق العصبية / القبلية ، أن توجه معاوية بن أبى سفيان الى نظام « التوريث » فى السلطة وكانت دولته بحق ـ كمـا وصـفها الجاحظ ـ عربية اعرابية أحيت القبيلة واعرابية التعصب العرقى ٠ وكان مقتل على ثم الحسين تم استرضاء الحسن آخر علاقة للدولة الأموية بعصر الخلافة ، وكانت نتيجة الانفصال أن استتب الأمر لمعاوية ثم ليزيد ثم لبقية خلفاء بنى أمية ، الذين اهتموا ببناء القصـور ، واقتناء القيان ، واقامة

حفلات الغناء والرقص ، وانشاد الشعر ، فظهر الشعر العربى فى تشكيله الموسيقى الغنائى الجديد ، فظهرت قصائد الخمر وقصائد الغزل الصريح (والعفيف بالطبع كرد فعل له) كما ظهرت قصائد الزهد (كرد فعل شعرى للخمر والغزل) وازدهرت قصيدة البلاط أعنى قصيدة (المديح) نظرا لتشجيع الحكام ، وهى أغراض اختفت خلال عصر النبوة والخلفاء الراشدين بوجه عام .

وفى هذا الجو المشحون ظهر شعراء متميزون، كما ظهرت اتجاهات شعرية جديدة ، كان رمزها عمر بن أبى ربيعة والشعراء العذريون الذين اتفقوا مع الزهاد فى البعد عن الصراع السياسى ونشأت قصيدة الحوار بين الحبيب والمحبوب ، وظهرت القصيدة التى تحكى قصة بين حبيبين . فى الوقت نفسه ظهرت النقائض الشعرية وانتشرت بين الناس خاصة نقائض جرير والفرزدق ، والبعيث والاخطل الى جانب الاتجاهات السياسية

الأساسية التى أثرت الحياة الشعرية العربية • ولكن الشاعر العربى ظل محافظا على عروبته وأفكار عروبته ، وان اتسمت بالتعصب القبلى المتخلف • وكانت أغراض الشعر عاكسة لجوهر حركة المجتمع الأموى أو المجتمع الاسلامى فى العصر الأموى •

ولما انتقل المجتمع العربى فى هذا السياق (رغم بداوة واعرابية سياسته) الى حياة الحضر ، بانتقال عاصمته الى الشام ذات الأصول الحضارية المختلطة بالحضارة الرومانية وبتقاليدها ، رقت ألفاظ الشعر وانتقى الشعراء معجمهم ، وزادت الثروة اللغوية ، وتعددت مصادر الشعراء وتعددت الأغراض الشعرية ، وزادت عن ذى قبل ، وسهلت الأساليب والصياغات •

وكما يفسر شوقى ضيف (وقبله طه حسين) هذه النقلة الفنية والمضمونية (فى مقدمة كتابه عن

العصر الإسلامى) بارجاعها الى انتشــار الموسيقى والغناء حين أصبحت « المدينة ومكة مركزين مهمين من مراكز الشعر » .

« وطبيعى أن يكثر فى المجتمع المتحضر الشباب العاطل الذى يريد أن يقطع أوقات فراغه الطويل فى لهو برىء وسرعان ما قدم له الرقيق الأجنبى ما يريد من هــذا اللهو ، اذ عنى بالغناء عنــاية استحدثت فى أثنائها نظرية الغناء العربية .. » .

ويجب أن نلاحظ ان البوادى ونجد وأطراف الجزيرة فى عصر بنى أمية قد قوى فيها شعر الحب والغزل فقد « ضعف نشاط الشعر اذن فى هــذه البيئة البدوية ، ولكنه اذا كان ضعف فى مجــال الفخر والهجاء فانه قوى قوة واسعة في مجال الغزل . إذ تكاثر شعراؤه كثرة مفرطة وتكاثرت قصصــه الغرامية خاصة بنى عذرة وبنى عامر » (٤) .

لذلك حيثما ينتهى العصر الأموى ، وينتهى معه عصر الاحتجاج ويصبح « بشار بن برد » آخر من يحتج بشعرهم ، ينشأ جيل « المولدين » وتنشأ الاتجاهات الفلسفية الجديدة التى تنقل الشعر العربى نقلة كيفية مختلفة عن العصر الأموى « إذ أكب الشعراء على العربية يتقنونها ويتمثلون ملكتها .. نافذين بذوقهم المتحضر الى أسلوب مصفى يجمع حينا بين الجزالة والرصانة ، وحينا يجمع بين الرقة والعذوبة . وكان تأثرهم عميقا بالثقافات المترجمة وبما كانوا يستمعون اليه من محاورات المعتزلة .. دفعهم الى التطور بموضوعات الشعر الموروثة تطورا نلمس فيه روح العصر ، وخصب الفكر ورهافة الشعور » (٥) .

وكان قدوم أبى مسلم الخرسانى (١٣٢ هـ) من خراسان بداية لسيطرة العنصر الفارسى المتسلط ، وبداية لعصر بنى العباس ، وكان

التحاما تاريخيا بمقتل عثمان وعلى بن أبى طالب والحسين بن على وكان التحاما بفكر الشيعة وفلسفتهم . كما كان بداية لحركة فكرية عظمى جمد الشعر العربى بانتهائها ، وضعف بضعفها ، وقوى بقوتها ، اذذ كان أبو نواس بداية استيقاظ « الذات » وتفجرها وخصوصيتها فى التعبير وحريتها فى رؤية الواقع . وكان نقطة تحول فنية بل ثورة جديدة على تقاليد القصيدة الموروثة ، وثورة فى اتجاه معاكس للشكل التقليدى .

كما كان أبو تمام رأس مدرسة البديع العربية وبداية الاستفادة الحقيقية من حركة الترجمة اللغوية والنقدية والفكرية التى ازدهرت فى العصر العباسى الأول فى تماسها مع التراث البلاغى العربى ، وفهمها الجيد لطاقات اللغة العربية وقدرتها . وبأبى تمام يتشكل « مذهب البديع » ويصاغ قانونه وتتعمق مشكلة «القديم والحديث»

التى تنتهي بانتصار الحديث وبظهور نقاد وبلاغيين استفادوا فى المقام الأول من حركة الترجمة ومن فكر المعتزلة الذين سبقوا الى صياغة نظرية للمجاز ووظيفته • اكتملت عند « عبد القاهر الجرجانى » فى كتابيه « أسرار البلاغة » و « دلائل الاعجاز » • وحينما نعود لنكمل دورة الشعر العربى بعد أبى تمام سنجد العلم الثالث (بعد أبى نواس وأبى تمام) « أبا الطيب المتنبى » الذى ميز القصيدة العربية بموسيقيتها الممزوجة بصياغة الفكر ، والدخول الى حيز ملحمى خاص • قد نشأ من روح عربية طموح ، وجدت تجسدها فى انتصار العرب على العجم وتوجت بانتصارات سيف الدولة الحمدانى التى تغنى بها المتنبى فى سيفياته •

ويتم الشعر العربى دورته حين يصل الى « أبى العلاء المعرى » حكيم المعرة وفيلسوفها ،

الذى كتب بالشعر العربى فلسفة عصره ، وموروثه بل خرج من هذه الفلسفة الى أول رحلة وحـــوار متخيل بين شعراء العربية جميعا ، فى رحلته المهمة ، « رســالة الغفران » التى تعــد أحــد منجــزات العربية الكبيرة ٠

ويجب أن نلاحظ أن الشعر العربى بخاصة كانت له ظروفه الاقليمية الى جانب هذه النقلات الكبيرة التى تميز كل قرن ـ تقريبا ـ بشاعر مجدد ينقل نقلة جديدة فى الشعر العربى ٠ كما أننا لابد أن نشير الى شــعراء المتصوفة الذين تميزوا داخــل السياق التاريخى والفنى لشعر العربية وان ظلوا على هامش التاريخ الأدبى ٠

وفى عــام (٦٥٦ هـ) تسقط الخلافة العباسية بعد ضعفها ، وبعد أن قدمت لنا أهم انجازات الشعر والنقد والفكر والعلم العربى ، وكان بحق العصر

الذهبي للعقل العربي اذ بانتهائه يبدأ عصر آخر، ومثل جمالي أعلى مختلف يناسب الجديد ويناسب الظروف التاريخية الجديدة .

اذ دخل الشعر مرحلة جديدة في العصر المملوكي ولم يتميز شاعر ما تميز شعراء العباسيين أو شعراء الأقاليم والدويلات . وأنقسم الشعر ابتداء من هذه الفترة الى شعر شعبي يناسب حياة الناس ، وشعر رسمي يناسب حياة الحكام ، فالصداقات دفعت الى تقارض الثناء وتبادل المدائح بين الصديقين ودفعت الى الشكر على المعونة والهدية ونحوهما ، ودفعت الى التهاني والتعازي في الأفراح والأتراح ، ودفعت الى مكابدة الأشواق وشكواها والى الحنين والى المعاتبة والى الاعتذار وغير ذلك مما يكون بين الأصدقاء . والصداقات أحيانا تزين اللهو والمجون والتفكه والدعابة والتندر ، ..(٦). وهي الأغراض التي اتجه اليها الشعر في العصر المملوكي التي ان

قورنت بالشعر فى العصور السابقة له كلها ، لوقفت موقف الضعف والهـ ال .

ونضيف هنا مالاحظه « زغلول سلام » على هذه الفترة من « اهتمام النـاس بالأغـانى الحضرية ؛ والموسيقى الحضرية المتطورة والممتزجة بأصـول عربيه وفارسية وتركية و .. اقبالهم كذلك عـلى الأغاني الشعبية والبدوية . ولم يكن هذا الاهتمام مقصوراً على أوساط النـاس بل نجـد كثيرا من الأمراء وبعض السلاطين يولون هذا الغناء اهتمامهم فيروى ابن اياس انهم كانوا يستمتعون بالاستماع الى جوق المحيطين ومغانى العرب » (٧) .

ونلاحظ هنا أن العصر المملوكى فى هذه الفترة قد شهد تمثيل « بابات بن دانيال » (٨) التى كان لها خصـائص الانقسام اللغوى واختلاط اغراض الشعر وبداية وجود نص حوارى تمثيلى فى الأدب العربي . ومع هذه التوجيهات يجب أن نرصد حركة

فن العربية الأول (الشعر) فى توجهاته الشعبية ، فقد تراجع فن العربيــة الاول أمام التغيرات الاجتماعية والسياسية والعسكرية التى تركت بصماتها واضحة على الفن بوجه عام ، وعلى الشعر بخاصة فقد تحولت البلاد العربية بعد سقوط الخلافة الى دويلات يحكمها العسكريون المماليك ذوو الأصول واللهجات واللغات المتعددة ، مما أدى بالشاعر والشعر أن يتركا مكانهما (مكان الصدارة) للخطيب ، ورجل الدين ، الأمر الذى غلب تقنيات « الخطبة » مثل الاهتمام بالزخارف الصوتية واللفظية وقيام الكلام على المنطق الشكلى بهدف الاقناع واستثارة الحماسة أو العواطف الدينية على تقنيات الشعر والقصيدة .

غلب هذا المنطق وساد وتجاوز الخطبة الى الشعر الذى اتسم بالسمات نفسها حتى اننا تذكر للوهلة الأولى سر ما كان يقوله النقاد التقليديون القدامى من أن الشعر خطب موزونة

(معقودة) والخطبة شعر محلول · وزادت الحياة الاجتماعية القائمة على حكم المماليك (غير العرب) وتسلطهم واهمالهم للمرافق العامة والأدب ـ زادت ـ الأمر سواء على المستوى الأدبى فدخل كثير من اللحن اللغوى وضعف التقنيات ·

وعلى الجانب الآخر اهتم المماليك بالمساجد والعمارة ، التى كانت أحد وسائل الاتصال بالجماهير ، والسيطرة على مشاعرهم وافكارهم بيت افكارهم خلال خطباء المساجد ، وافشاء بعض مفاهيمهم عن الدين والسلطة والفن والأدب على السواء ·

وأما جماهير الشعب التى انفصلت ، لغويا ووجدانيا ، عن الحاكم الذى لم يعد له رابط يربطه بالناس الا الدين ، باعتبار نفسه ولى الأمر منهم فتجب طاعته ، انفصلت الجماهير بلغتها ووجدانها ، واحلامها وطموحاتها التى زاد منها تعرض الوطن

لعدو أجنبى غريب • ومن ثم كان حلم العامة وطموحهم « الدينى » متمثلا فى مجيىء « المخلص » « البطل » وفى استقلالهم بأدب شعبى ، يصور كل هذا وكانت السيرة الشعبية تجسيدا له •

وداخل السيرة الشعبية ، يسيطر الراوى على اللغة وعلى الحوادث والشخصيات لانه يشكل السيرة الشعبية بما يتوازى وحلم ووجدان المتلقى ، اذ لابد ان يتوسل ـ هنا ـ بما يملكه هذا الوجدان من تراث ، قصصى وشعرى ، واخلاقى لتشكيل بنية النص السيرى على ما نراه عليه •

ويقوم الشعر بوظيفة جمالية ترتبط بالنص ناحية ثالثة ، بصرف النظر عما نجده فى هذا الشعر من كسور عروضية واختلاط بين العامية والفصحى وما يشوب الكسر والاختلاط من اخطاء نحوية وركاكة أسلوبية تفصح عن نوع الراوى (الصائغ

والمؤدى) وعن نوع المتلقى الذى لا يهمه كل هذه التجاوزات ، بل يهمه « المغزى وضرورة » انتصار البطل « الرمز والقناع » .

يقوم الشعر بوظيفة مهمة بالنسبة « للراوى » الذى يستخدم « ربابة » للحكى تستدعى ان يستخدم الشعر ليستفيد من ايقاعه فى جذب انتباه السامع ، حيث يؤدى السرد النثرى الى نوع من الملل يقطعه الشعر من ناحية وايقاع الشعر على الربابة من الناحية الاخرى فالراوى يقطع الجمل المسجعة ، المتوازية ، وينتقل الى ايقاع أكثر كثافة وانتظاما ، عن الاداء الذى يسبقه ، فيطرب المتلقى ، وينشد الراوى مقاطع الشعر ومن ثم يتوقف السرد لحظات تمهد المتلقى للنقلة التالية من حوادث السيرة ويقوم الشعر بدور التقاط الانفاس والتشويق ، وفي الوقت نفسه يعطى فرصة لاستماع صوت الراوى حين يغنى الشعر على الربابة .

كما يربط الشعر بين المتلقى والراوى والتراث الشعرى العربى حيث يجد الشعر تواصلا مع التراث الشعرى الذى وصل الى مرحلة سيئة فى عصر السير الشعبية فقد وجد الشعر طريقا آخر ، بعيدا عن : قال يمدح أو قال يهجو ، فقد اختفت دوافع المدح والهجاء وظهرت دوافع أخرى لقول الشعر وتشكيله كمنت فى ارضاء أذواق المتلقى الشعبى فاذا كان الشاعر الرسمى يرضى الممدوح فشاعر السيرة يرضى ممدوحا لا يملك الا القليل ، لكنه يمتلك وقتا طويلا يريدان يترفه فيه ، والشاعر بدوره يمتلك قدرة شعرية يوجهها الى ممدوحه الجديد الذى يعطيه حقه تشجيعا واستحسانا ، أو ما يسد أود الراوى .

والشعر أحد تقنيات تشكيل السيرة الشعبية ولا تستغنى عنه سيرة من السير ، ويقوم بدور بنيوى داخل النص ، وبدونه قد تختل بنية السيرة

الشعبية ، وتفقد كثيرا من موسيقيتها ومن تجاوب المتلقى معها ومن ابداع الراوى (٩) .

اذن كان توجه الشعر فصيحه ، وشعبيه الى صياغة أغراض خاصة ثم أغراض شعبية جمعية تبدت ، فى وظيفة الشعر فى السيرة الشعبية وفى الشعر التمثيلى فى بابات خيال الظل ، وهبطت بالشعر العربى من ذروته الذاتية الغنائية وملحميته ، وفلسفته ، الى نوع من العناية الشكلية والمضمونية السطحية .

ويجب ان نلاحظ هنا ملاحظتين مهمتين فى هذا السياق :

الأولى :

وهى تصدر ثقافة الأزهر لبنية المجتمع الثقافية ؛ الأمر الذى حصر المثقفين ـ فيما بعد ـ فى رجال الأزهر وجعل من شعر رجال الأزهر مرآة

لشعر هذه الفترة التى لعب فيها رجل الدين الدور الجوهرى فى حياة الناس • اما بقية الشعراء فكان لهم مهن أخرى كالفكهانى ، والحمامى ، والجزار والعطار والنجار •• الخ • مما فرض الدور الثانوى على الشعر وقرنه بالتسلية • ولا عجب أيضا ان نجد الحركة العلمية فى مصر تخمد وتضعف فى هذه القرون ، فلم يظهر فيها مفكرون جدد ولا مدارس تفكيرية جديدة وانتهت العناية بالعلوم فى الأزهر والمساجد والمدارس التى كان ينشئها سلاطين المماليك الى دراسات دينية أو لغوية أو تاريخية • وانتهى جهد العلماء فى مصر الى نظم قصيدة لمدح سلطان اذا انتصر ، أو تأريخ حياته اذا مات ، أو شرح أو تفسير أو تهميش أو تعليق او اختصار لامهات الكتب القديمة فى الفقه والتفسير والحديث وغيرها من العلوم الدينية واللغوية (١٠) •

والملاحظة الثانية :

تتعلق بأدب الحروب الصليبية الذى توازى مع حس البطولة فى السير الشعبية وكان له شعراؤه ، كما ان اهتمام العصر بتدوين الموسوعات الأدبية والتاريخية والدينية كان واضحا في مواجهة ما فعله التتار فى مكتبة بغداد وغيرها ٠

ولم يتغير الحال في العصر العثماني « فقد حرصت الدولة العثمانية على السيطرة واستغلت خروج الشعب العربى من الحروب الصليبية تعبا مستنزفا فهزمت المماليك وحالت بلا شك دون اتصال أجزاء الدولة بالحضارات الأجنبية عموما ، وبالحضارة الأوربية خصوصا » (١١) ٠ واحكمت قوتها على بلاد العرب والمسلمين بحجة اسلامية تتناسب توجه العصر فزاد الأمر سوءا وجمودا ، بل حاولت الدولة العثمانية افقار مصر من خبراتها وادواتها الفنية وتراثها الفنى والأدبى بخاصة ٠

وكـــان يمكن للأدب التـــركى ان يثـــرى الأدب العـــربى فى هـــذه الفترة ، لكن الحصـــار التركى المضروب على البلاد العربية فى كافة الاتجاهات جمد الحياة وجمد الأدب بالتالى . وقد حدث فى بدايـــة النهضة فى العصر الحديث أن استمد محمود سامى البارودى من الشـــعر التركى خصوبة عالية سهلت عليه العـــودة الى عصـــور ازدهار الأدب العربى ، كمـــا ســـاعدته مخطوطـــات الشـــعر العـــربى التى سلبهـــا الاتراك من مكتباتنا ، ففى الفتـــرة التى دخل العثمانيون بلادنا كانوا على اتصال بمراكـــز الحضارة الأوربيـــة كمـــا كانت الدولة العثمانيـــة منذهرة الى حد يسمح لها بمساعدة الحضارة العربية الاسلامية .

واستمـــر العثمانيون فى هـــذه الحـــال ، حتى بدأت نذر الوعى القومى على يد « على بك الكبير » وبقيـــة الحركـــات الانفصاليـــة التى تشـــابهت مع الحركات الانفصالية عن جسم الدولة العباسية فى

عصرها الثانى وحركة على بك الكبير نفسها التى كانت ارهاصة من ارهاصات وعى البلاد بذاتها القومية التى وجدت مصداقها القومى لحظة الصدام مع نذر الحداثة « التى جاءت مع الحملة الفرنسية » (١٧٩٨) م .

هوامش الفصل الثالث

---

(١) عبد المنعم تليمة ، مداخل الى علم الجمال الأدبى ، دار الثقافة الجديدة ، ١٩٨٠ . ص ٣٩ ، ٤٠ .

(٢) سى . داى . لويس ، الصورة الشعرية ، ترجمة أحمد نصيف الجنابى ، دار الرشيد للنشر ، بغداد ١٩٨٢ ، ص ٣٧ .

(٣) جابر عصفور ، الشاعر الحكيم ، مقالة بمجلة فصول ، العدد مارس ١٩٨٣ ، ص ١٢٠ .

(٤) شوقى ضيف ، العصر الاسلامي ، دار المعارف ، الطبعة الثامنة ، ١٩٧٨م ، ص ١٣٩ ، ١٤٠ ، ١٥٠ .

(٥) شوقى ضيف ، العصر العباسى الأول ، دار المعارف ، الطبعة السادسة ، ١٩٧٨م ، ص ٥ .

(٦) محمود رزق سليم ، عصر سلاطين المماليك ، ج ٦ ، مكتبة الآداب ـ الجماميز ـ القاهرة ، ١٩٦٢ ، ص ٣٠٧ .

(٧) محمد زغلول سلام ، الأدب فى العصر المملوكى ، دار المعارف ، ١٩٨٠ ، ص ٢٨٥ .

(٨) انظر دراسة : مدحت الجيار . خيال الظل مسرح العصور الوسطى الاسلامية مجلة فصول ، العدد السادس الخاص بالمسرح ومشكلاته .

(٩) انظر دراسة تطبيقية لمدحت الجيار ، حول وظيفة الشعر فى سيرة الزير سالم ، قدمت للمؤتمر الدولى الثانى للسير الشعبية العربية فى الفترة من ٢/٦ يناير ١٩٨٥ ، بالقاهرة .

(١٠) جمال الدين الشيال ، رفاعة رافع الطهطـــاوى ، دار المعارف ، الطبعة الثالثة ، ١٩٨٠ ، ص ٦ .

(١١) حسين مؤنس . الشرق الاسلامى الحديث ، الطبعـــة الثالية ، القاهرة ــ ١٩٣٨ ، ص (ل) .

الفصل الرابع

« الاسلام والشعر »

« التراث الشعرى والموروث التقنـى »

التراث هو كل ما نرثه أو يصل الينا ، ولذا يغلب على التراث الماضوية ، بمعنى أنه اذا اطلق مصطلح التراث انصرف الذهن الى ما وصلنـا من الاسلاف والاجداد والآباء ، فى مختلف النواحى والمجـالات والابداعات ، فلا يقتصر التراث على شىء بالتحديد ، بل هو كل شىء «كان» ويدخل فى تكوين « الحاضر» • لذلك يتسم التراث ، بالشمولية ، والتنوع بالنسبة لقوميته ، ولكن له جانب آخر انساني ، يربط بين تراث الأمة وتراث الأمم الاخرى • ذلك أن التأثير والتأثر فى حالة جدل وتفاعل مستمرين ، منذ أن كانت الحضارات متميزة ، ومنفصلة نتيجة لصعوبة

المواصلات والاتصال ، فى القديم ، أما الآن فنحن أمام حضارة انسانية متقدمة ، ومتفوقة فى وسائل المواصلات والاتصال الى حد مذهل للعقل ؛ مما يعطى لحضارة كل أمة حظا مضاعفا من التأثير والتأثر اللذين كانا يدخلانها ببطء وصعوبة •

ان تراث الأمة ، أية أمة ، الآن ، هو جزء من حضارة العالم « الانسان » وفى الوقت نفسه تحرص الأمم على وضع مميزات لتراثها فى مختلف توجهاته وتنوعاته • فهى حريصة على الاستقلال ــ رغبة فى التمايز ــ وحريصة على التواصل ــ رغبة فى مواكبة العصر ــ وحريصة على وصل القديم بالجديد حتى لا يتخلف القديم فيطغى الجديد ، خاصة اذا كان الجديد خلاصة تجربة أمم أخرى ارتبطت فترة طويلة بالاستعمار ومحاولة السيطرة على فكر الشعوب الأخرى وبكل الوسائل حتى لو أدى الأمر الى محو الشخصية المميزة للأمة واحلال ملامح شخصية أمة أخرى •

لذلك يرتبط مفهوم « التراث » بالاصالة والمعاصرة فى آن • حيث لابد للمعاصر من امتداد فى عمق التاريخ والحضارة والثقافة الخاصة بأمة من الأمم • ومرد الاصالة الى مادتها اللغوية «أصل» أى أن يكون المعاصر ذا جذور أصيلة ممتدة تمنعه من الانهيار أمام المعاصر (الوافد أو الغريب) • كما أنه لابد للأصيل من ان يكون ممثلا فى الفكر الآنى . أى يتواصل التراث « الماضوى ، القديم ، الأصيل » بالآن ، الناتج من (الوافد ، أو الغريب) • ولابد أن يتسم هذا التواصل بالجدلية أى لا يضعف طرف الأصيل التراثى بالمنقول عن الحضارات الأخرى فى أى وقت ، فى الوقت الذى يجب أن نستفيد فيه بكل منجزات عصرنا مع ماضينا ، وتراثنا ، وان نستخلص من عصرنا ما هو جوهرى ، وصالح للتواصل ، لا أن نأخذ كل شىء بحجة الدراسة ، لأننا اذا حددنا علاقتنا « بالزمن : الماضى ، الحاضر ، المستقبل » من ناحية ، وحددنا

علاقتنا بالآخر : « المماثل أو المخالف » ، سنجد في حالة حركة صحيحة وفي سلامة من التعثر أو أو التبعية ·

وليس معنى ذلك ان نلقى بأنفسنا فى «قومية» ضيقة تستعدى الأمم على أمم أخرى ، أو ان نلقى بحضارتنا في أتون « التعصب » بدون اعمال العقل ، والتحاور ، لاستخلاص الصالح · ان الماضى ، والحاضر كلاهما يمثل قوة الدفع للمستقبل · والوقوف عند الماضى يصيبنا «بالعمى» والوقوف عند الحاضر يصيبنا « بالسطحية » · والتركيز على المستقبل دون امتداد الحاضر فى الماضى فى المستقبل يصيبنا « بالهزال الفكرى » والحضارى ·

كما أن تضييق مفهوم الماضى التراثى، على التراث الدينى الاسلامى يضعف هذا التراث العظيم الذى تنوعت مناهجه ومصادره · بل يصبح هذا عملا

ضد التراث نفسه ، كذلك تضييق فهم الحاضر من خلال رؤية سلفية ضد التاريخ وضد قانون التطور الذى هو الأصل فى الكون ، والظواهر والانسان ، والذات المبدعة • لأننا نلغى عنصر التطور والاضافة والغربلة التى يكتسبها التراث عبر مسيرته التاريخية والحضارية •

كما أن الحكم على ما هو تراث وما هو غير تراث يجب أن يخضع لمقاييس موضوعية ، دون استعداء ، ودون وقوف ضد تيار التاريخ العربى والاسلامى ، فى كل مراحله : أن كل مرحلة من هذه المراحل كانت تفهم التراث بمفهوم خاص يتناسب مع العصر ، ومع الظروف التى تتصادم مع الدولة العربية/الاسلامية ، فلا شك فى أن مفهوم التراث فى صدر الاسلام ضاق ليتسع للحاضر الجديد ، وليتواكب مع النقلة الحضارية والفكرية الدينية التى صنعها الاسلام والتى أسس بها دولة وحضارة

ضخمة نقلت العرب من حال الى حال · ومن نظام الى نظام ·

كذلك في العصر الأموى ، كان التراث يتسع قليلا ليعود الى بعض سنن الجاهلية ليتيح لمعاوية مثلا : أن يجعل الحكم وراثة،وليبرر وصوله للحكم· كما اتسع مفهوم التراث فى فترات حكام الأمويين ليتسع للحاضر ـ لأن مكسب الأمويين فى الحاضر ـ وفى تفريغ هذا الحاضر ، وفى توسيعه ·

وكان الأدب ، والشعر بخاصة ، فى شكله وتشكيله ، ورؤيته ، انعكاسا لهذه الحركة الصاعدة الهابطة ، لمفهوم التراث في مختلف الأوقات ، اذ عكست تقنيات الفن السائدة ، جوهر فكر المرحلة التى ينتج فيها ، دون أن يتوقف الشاعر عند نموذج سابق عليه ويجمد عنده · الأمر الذى يجعل النموذج السابق مقياسا للحاضر ، فيربط الحاضر بالماضى ويجعل السبق والتفوق له ، ومن ثم يصبح

فضل الشاعر فى النقل ، وليس فى الابداع ، مما يساعد على جمود النموذج الشعرى • عند قرون مضت ويعطل نمو الحاضر الى المستقبل ، ويمحى تمايز الماضى والحاضر والمستقبل •

وهل يتجاوز الشاعر هذا الماضى ؟ بانمائه وتواصله ، فيخلق تراثا بديلا ، يصور رؤية معاصرة ، تستفيد من الماضوية ، ومن نماذجها ولا تخضع لها ، بل تطورها ، حيث تضيف اليها نقلة تقنية ، ولغوية ومعجمية •

وهل يتمثل الشاعر هذا الماضى التراثى ؟ ويتوسل به ـ فى علاقة جدلية ـ تجعله صالحا للكشف عن عناصر الاختلاف معه •

وهل يأخذ التراث كله ، أم يأخذ جانب منه ، كأن يأخذ حادثة ، أو موقفا أو يستدعى احدى شخصياته ؟ وهل يستعين بمعجم التراث فقط . أم يتوسل به دون أن يخضع له ؟ • كل هذه التساؤلات،

تجد اجابة عليها لو وازنا بين القصيدة الجاهلية والقصيدة فى العصر الاسلامى والأموى .

ارتبط الشعر فى ذهن العرب بالسحر والكهانة ، أو كما كانوا يعتقدون ان الشعر تمليه شياطين فى رؤوس الشعراء ، وأن الجن تتناجى مع الشعراء ليقولوا هذا الكلام العجيب لأن الشعر بوزنه وموسيقاه ، وقافيته ، وصوره الشعرية ، وخياله المتقد الذى يفارق الواقع أو يسبقه كان بمثابة معجزة لغوية الى جانب الكلام النثرى . لذلك أرجعوا ما فى الشعر من تأثير الى السحر الذى يجدون له فى تاريخهم ، وفى تاريخ الانسان ، ما يجعلهم يؤمنون به ، لأنهم يسمون كل فعل فوق العادة دون معرفة قانونه أو أسبابه (سحرا) ويكون معنى السحر هنا الأثر الذى لا نعرف سببا له ، كما أن الشعر وهو ديوانهم ، ومصور خيالهم ، كان وسيلة فهم هامة لحكمة التاريخ ومصدرا للمتعة ، لذلك لما جاء الاسلام لم

يغير من فهم الشعر ، وظل الشعر في مفهومه الجاهلي (سحرا) لكنه غير وظيفته ·

الجديد في الاسلام فيما يختص بالشعر أنه جعل للشعر وظيفة سياسية واجتماعية تتعدى رغبة الشاعر ، اذ كان موقف الاسلام من الشعر مشوبا بالحذر في بداية الاسلام ، وكان العرب يقولون عن (محمد) (الشاعر) وكان القرآن ينزه النبي (ص) عن قول الشعر كما جاء في الآية الكريمة (وما علمناه الشعر ، وما ينبغي له) فكانت أول تفرقة بين ايقاع وموسيقى الشعر ، وايقاع وموسيقى القرآن الكريم ·

فلقد صاغ القرآن الكريم موقفه من الشعر في قوله تعالى « والشعراء يتبعهم الغاوون، ألم تر أنهم في كل واد يهيمون ، وأنهم يقولون مالا يفعلون الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وانتصروا من بعد ما ظلموا ·· » ·

وهنا ينقل الدين الجديد العرب من حالة إلى حالة ، ومن فكر الى فكر ، واستطاع ان يجعل الشاعر وسيلة اعلام للدولة الاسلامية يذيع أفكارها ومبادئها وعقائدها وتقاليدها الجديدة ، واستطاع الشاعر بذلك أن يواكب هذه النقلة الحضارية دون أن يبت صلاته مع تراثه الشعرى الجاهلى ·

ولو تساءلنا هل هناك ملامح خاصة فى القصيدة الاسلامية ؟

وهل العصر الإسلامى أخرج قصيدة متميزة عن القصائد التى شهدها العصر الجاهلى ؟ نقول : نعم احدث ذلك لأن ملامح القصيدة العربية اختلفت وتميزت ·

فالشاعر « المخضرم » « حسان بن ثابت » سنجد عنده فرقا بين القصيدة الاسلامية ، وبين القصيدة الجاهلية لأن النقلة التى انتقلتها القصيدة واضحة عنده : فهو يبدأ عرضه مباشرة ويستخدم

معجما جديدا له دلالات اسلامية حين يطلب منه المشاركة فى الأحداث الواقعة ، وكان قبل الاسلام يقدم نموذجا مختلفا .

فحين طلب النبى من حسان ان يمدح القوم ، ويشيد بالمسلمين الجدد ، قال « حسان » قصيدته المشهورة :

ان الذوائب من فهر واخوتهم
قد بينوا سننا للناس تتبع
يرضى بها كل من كانت سريرته
تقوى الاله وبالأمر الذى شرعوا
قوم اذا حاربوا ضروا عدوهم
أو حاولوا النفع فى اشياعهم نفعوا
سجية فيهم غير محدثة
ان الخلائق فاعلم شرها البدع

أكرم بقوم رسول الله قائدهم
اذا تفرقت الأهواء والشيع

فقد كانت القصيدة الجاهلية دائما تبدأ بالمقدمة التى يقف فيها الشاعر على الطلل الدارس،

ويتحدث عن ذكرياته القديمة مناجيا ديار محبوبته، وينادى صاحبه أو صاحبيه ، أن يقوما معه الى الرحلة ثم يخلص الى غرض واحد ، أو عدة أغراض ، ويختم قصيدته بالحكمة أو النصيحة ، وكان ذلك هو منهج القصيدة العربية . وهى عادة قصيدة طويلة ، والمعلقات العشر تدل على ذلك . والشعراء الآخرون وجدوا بينهم أيضا علامة من علامات هذه القصيدة ، كذلك شعر الشعراء الصعاليك الذين خرجوا على القبيلة ، وسموا بذلك، واذا كانت قصيدة الصعاليك قد غيرت فى شىء من القصيدة الا أنها كانت خاضعة للقصيدة العربية ككل .

فمعلقة امرىء القيس ، والتى مطلعها :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل

بسقط اللوى بين الدخول فحومل

ومعلقه (عنترة بن شداد) التى بدأها بقوله :

هل غادر الشعراء من متردم

أم هل عرفت الدار بعد توهم ؟

يا دار عبـلة بالجـواء تكلمي
وعمي صباحا دار عبلة واسلم

ومعلقـة « زهير بن أبى سلمى » التى تبـدأ نفس البداية :

امن ام اوفى دمنـة لم تكلم
بحـومانه الدارج فالمتلثـم

وكذلك بقية المعلقات، والقصائد الجاهلية الاخرى :

أما هنا فالشاعر « حسان بن ثابت » قد دخل الى الغرض مباشرة دون مقدمة ، وربما يعود السبب فى ذلك الى رغبة الاسلام فى تجاوز الماضى والبعد عن الحديث فى الأشياء الجامدة كالدمن ، والاثافى، والأصنام ، وغيرها من مخلفات الحضارة العربية ، لأنه يخرج من عصر «جاهلى» تقدست فيه الحجارة ، وتقدست فيه بعض مظاهر الطبيعة ، فأراد أن يلغى هذه الأشياء المقدسة ، وأن يتجه الى القصيدة فورا ، والى الغرض مباشرة فقال : ان الذوائب من فهـر .. الخ .

وحين وصل الى الغرض حاول أن يذكر العرب بالأخوة فقال (واخوتهم) فالأخوة هنا تتعارض مع ما كان يشيع في أيام العرب ، وما كان من شعر في القصيدة العربية الجاهلية من الحديث عن القـوة ، والغلبة التي هي من شيمة الأقوياء ، والكبراء فقد أذاق العرب بعضهم البعض ، شيئـا من البطش ٠

فاذا كان « زهير بن أبي سلمى » يقول :

ومن لم يزد عن حوضه بسـلاحه
يهدم ومن لايظلم الناس يظلم

لتعلم هنا أن الظلم شيمـة للنفوس القوية ، ووسيلة من وسائل العيش فلا تتحقق الأخـوة مع ذلك . وترى مظهر القوة واضح الدلالة في : قصيدة «عمرو بن كلثوم التغلبي» في قوله مفتخرا :

وأنا الواردون الماء صـفوا
ويشرب غيرنا كدرا وطينـا

حيث نجد فيها القوى يشرب الماء الصافي ، والعذب

الذلال ، أما الضعيف المغلوب على أمره فينتظر ولا يحصل الا على الماء العكر .

فمعارك العرب في الجاهلية بين أنفسهم قتلت فيهم روح الأخوة ، ولذلك كانت عبارة « حسان » مناقضة لما يشيع من ظلم ، وفرقة كما في قوله « قد بينوا سننا للناس تتبع » .

ثم يخرج « حسان » من الحديث عن « الأخوة العربية الى الأخوة الاسلامية فكأن العرب الذين أسلموا يثبتون شرعا جديدا للناس جميعا وليس للعرب وحدهم ، وهي سنن تتبع ولا تقبل المناقشة لأنها سنن مستمدة من القرآن ومن قول وأفعال الرسول (ص) يرضى بها من كانت سريرته أي داخله تقوى الله ، وبالأمر الذي شرعه .

لذا يأتي قوله :

قوم اذا حاربوا ضروا عدوهم
أو حاولوا النفع من أشياعهم نفعوا

مستمدا مع قول القرآن الكريم « أشداء على الكفار رحماء بينهم » .

وقول « حسان » سجية فيهم غير محدثة .

يتمشى مع قول النبى (ص) : « كل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة فى النار » .

ومن هنا تظهر ملامح جديدة للقصيدة الاسلامية ، وهى الاستفادة من القرآن الكريم والسنة النبوية مباشرة ، ونرى الشاعر خاضعا لما يقوله القرآن والسنة .

ويختتم « حسان » قصيدته بالفخر بالمسلمين أولا ثم بالنبى (ص) فقال :

أكرم بقول رسول الله قائدهم ، لأن فكرة الجماعة أو الأمة تغلب على فكر الشاعر ، وهنا يخص القوم الذين أسلموا فقال « بقوم » ولم يقل

« بالقوم » لأ لا يشمل القوم كلهم ومنهم غير المسلمين .

وقال : « قائدهم » حتى لا تعنى « ملكهم » لأن السيد هنا فى هذا العصر الجديد ، بخلاف ما كان عليه العصر الجاهلى الذى كان ، السيد فيه يملك ويقود ولأن الاسلام عدل ومساواة وشورى كان الرسول قائدا وليس ملكا .

وقول « حسان » اذا تفرقت الأهواء والشيع ، يعنى اذا الأهواء والجماعات تفرقت اجتمع المسلمون على كلمة القائد، فأمرهم شورى بينهم. وهنا تحول المدح الى مدح الجماعة ، ومدح القائد ، وليس مدح السيد الغنى . وهنا نلمح شكلا جديدا يجمع بين غرضى المدح والفخر بصفات جديدة لم تكن موصوفة من قبل .

فلم يقل حسان كما قال زهير بن أبى سلمى :

يمينا لنعم السيدان وجدتما
على كل حال من سحيل ومبرم

ولا كما قال الأعشى « أتـانى ـ أبيت اللعن أنك لمتنى .. »

ولم يفـاخر « بالذات » كمـا فاخر « عنترة ابن شداد » حين قال :

أنا في الحـرب العـوان غير مجهول المـكان
أينمـا نادى المنـادى فى دجى النقع يرانى

وعنترة حينمـا يفخر ، يفخر بالشراسة ، فى « دجى النقع » حين :

فاذا ما الأرض صـارت
وردة مثـل الدهـان

وليس فى الاسلام هذا المزاج الدموى .

أما الشاعـر « حسـان » فحينما أشـاد بقوة المسلمين قال : « ضروا عدوهم » ولم يقل « قتلوا

عدوهم » لأن القتل ربما تجاوز حدود القيم وعمد الى التمثيل بالجثث والاسلام ينهى عن تجاوز الحدود ·

اذن هناك ملامح جديدة قد تخلقت فى القصيدة العربية فى العصر الاسلامى ، وهناك تقاليد فنية جديدة ، قد تضمنتها القصيدة العربية الاسلامية ·

كان هذا عن « الحرب » وما فيها من شجاعة ، وفخر ···

واذا تساءلنا : أين « المرأة » فى القصيدة الاسلامية ؟ وكما كانت « المرأة » ظاهرة فى الواقع الجاهلى ، وكانت بالتالى ظاهرة فى القصيدة الجاهلية ، حينما اختفت من الواقع الاسلامى الجديد ، اختفت أيضا من القصيدة الاسلامية فلا تبذل ، ولا تعريض بحرمات ، ولا خدش لحياء ·

« فكمـــا يعيش النـــاس يفكرون ، ويكتبـــون الشعر ، ويفتنون الفنون » .

فقد حذفت المقدمة الطللية التى كانت تتصدر القصيـــدة العربيـــة الجاهلية تمشيـــا مع الواقـــع الاسلامى الجديد الذى يرعى الذمم ويحـــافظ على القيم ويصون الاعراض .

وتحولت « المـــرأة » فى العصر الاســـلامى الى نموذج جليـــل ، الى « مـــريم ابنه عمـــران » والى « امرأة فرعون » كمثال للطهر والنقاء » .

والمرأة النقيض تحولت الى « بلقيس » ملكـــة « سبأ » والى « زوج لوط عليه السلام » فقد تحول هؤلاء النسوة الى نماذج ، وأخذ الشاعر عن القرآن الكريم هذه النماذج ، وترك الأفراد ، وأخذ النمط وترك التجربة فتحول الشعر فى هذه الفترة ، فترة

« صدر الاسلام » الى وثيقة تعبير عن الواقع الجديد، وعن الحياة الجديدة بحلوها ومرها • تحول الى مرآة تعكس هذه الحياة بشقيها المادى والروحى •

وكما قلنا حاول الاسلام أن يصوغ نظرية للشعر ، لأنه أراد أن ، يؤصل دولة جديدة ، تختلف عن الدولة العربية القديمة ، وكما قلنا أيضا حدد القرآن موقفه من الشعر فى آيات جليلة تبدأ بنفى صفة الشعر عن القرآن الكريم ، ونفى صفة الشاعر عن الرسول الصادق الأمين • ثم بدأ فى تصنيف الشعر الى صنفين : « صنف غاو ، وصنف مؤمن » •

اذ نزل القرآن الكريم بلغة تضمنت كثيرا من لهجات العرب ، وحاول الشعراء وغيرهم أن يقلدوا هذا النموذج الجديد لأنه نموذج حديث فى اطار اللغة العربية ، ولذلك اتهموا الرسول (ص) بأنه يقول الشعر • وقالوا أنه شاعر أو مجنون ، وقال

القرآن « وما هو بقول شاعر » فكان لابد أن يصوغ القرآن الكريم سمات الشعر كما حددها فى الآية الكريمة « والشعراء يتبعهم الفاوون ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون وأنهم يقولون ما لا يفعلون ‥ » ونحس أن القرآن الكريم وهو يصوغ فكره ونظريته عن الشعر كان حديثه عن الشاعر ، فذلك معناه انه يهتم أساسا بوسيلة الاعلام ·

فقد وصف القرآن الشعراء بثلاث صفات : « الغواية / الهيام / الكذب » ولما وصفهم بالغواية قال « يتبعهم الغاوون » أى من فى مثل غوايتهم كأنه يعترف بالتأثير السلبى للشاعر على الناس ، ولكنه حدد أناسا بعينهم فقال « الغاوون » وليس الناس كلهم فهم فئة معينة ، وحينما حدد الصفات السلبية بدأ كما قلنا بالغواية وقال : « الشعراء » بالألف واللام للجمع ، فقد حدد الشاعر / من يتبع الشاعر لا يريد النبى ومن يتبع النبى ، فلما كانت الفكرة هى المقارنة بين الشاعر وبين

النبى (ص) ، وبين الشعر والقرآن الكريم حدد القرآن تأثير الشعر على النـــاس ، والا لمـــا تحفظ القرآن على الشاعر . ثم يجيب عن هــذه الصفــة السلبية « ألم تر انهــم فى كل واد يهيمــون » . والهيــام هنــا الضــلالة فى « فى كل واد » فهم هائمون ، ولا يعرفون أين ينتهون ولا أين يبدؤن ، فوصــــفهم القـــرآن بالتشتت الفـــكرى ، وب « يقولون مــا لا يفعلون » أى وصفهــم بالكذب ، فالشاعر يقــول مــا لا يفعله والاســلام يريد من الشاعر ان يقول ما يفعله فقط لأنه حدد فى القرآن له ما يقوله ، وما لا يقوله .

اذن وصفهم القــرآن بالغــواية ، والهيــام ، والكذب ، وهو يريد عكس ذلك ، فلمــا وصــل الى الصفات الايجابية قال « الا الذين أمنوا » أى الذين أسلموا لأن الايمان قد يفهم على انه ديانة أخرى ، ثم وصفهم بالصلاح فى قوله « وعملوا الصالحات » . فالصفات السلبية : ان الشعراء يقولون ما لا يفعلون

وهنا قدم الفعل « وعملوا الصالحات » بمعنى أن ، الذين سبقوا من الشعراء وكان عملهم غير صالح ، وهنا اشترط الاسلام العمل الصالح ، ثم وصفهم أخيرا بـ « وذكروا الله كثيرا » « وانتصروا من بعد ما ظلموا » .

وقد رد الاسلام وهو يصوغ النظرية كل الشعراء واستثنى منهم الشعراء المؤمنين وكما فعل « أفلاطون » فهو يعتبر الشاعر نقطة ضعف في الدولة ، لأن الشاعر يثير الناس ويثير فيهم عواطف، ويجعلهم في استرخاء يشوه الحقيقة ولا يعطيهم الحقيقة كما هي ، وانما يبتعد عنها درجتين ، لأن الحقيقة المطلقة التي في ذهن الناس غير الحقيقة الواقعة التي يصورها الشاعر . معنى ذلك ان الشاعر يشوه الحقيقة لذلك اخرج الشعراء من الدولة « ومع ذلك » أحس ان هذه الدولة لا تستطيع البعد عن العاطفة ، فطرد منهم من يخدم نفسه وترك من هم في خدمة الدولة .

موقف النبى والصحابة
من الشعـر والشعـراء

عرضنا فى الجزء السابق موقف الاسلام بشكل عام من الشعر والشعراء وقلنا ان الاسلام ركز فى حديثه على الشعراء وعلى الجوانب المؤثرة فى المتلقى، وأدى الموقف الاسلامى الى موقف من الشعراء الذين لا يدعون الى مكـارم الاخـلاق ، التى هى جمـاع الفضـائل والأعمـال الخـيرة ، حتى أنـه سمـح لحسان ان يهجو المشركين وربط بين هجـائه وبين روح القدس ، لأنه فى موقف الدفاع .

ونحاول فى هذه الصفحات أن نفصل المواقف من جديد ، حتى تتضح التطورات الحـادثة على

القصيدة وعلى الشاعر ، وعلى المتلقى ، ونبدأ الآن بموقف النبى ، أو بمواقف النبى من الشعر ، والشعراء وهى مواقف عملية تعكس حقيقة موقفه العام من مكارم الاخلاق ·

فلقد كان النبى يستمع الى الشعر ، ويعجب ببعض الشعراء ويبغض البعض الآخر ، وتعليقاته فى هذا السياق تعكس موقفا أخلاقيا من الشعر والشعراء ، اذ يقول عن عنترة انه يدعو الى مكارم الأخلاق بل تمنى أن يراه لاعجابه ببيت من شعره :

ولقد أبيت على الطوى واظله
حتى أنال به كريم المأكل

وذلك لأن هذا البيت يصير مضرب المثل ، ويحض على القوة والصبر بل يتشبه بالأسد الجائع المصر على جوعه رغم وجود « الجيف » ملقاة فى الصحراء ·

ويقف الرضا عن بيت عنترة نقيضا لتعليقات النبى على أمرى القيس وشعره ، فقد روى ابن قتيبة أن قوما فروا من مأزق شديد الحرج بسبب بيتين لامرىء القيس ، فلما نجوا فروا « حتى بلغوا النبى (ص) ، فأخبروه وقالوا : أحيانا بيتان من شعر امرىء القيس ، فقال النبى (ص) « ذاك رجل مذكور فى الدنيا ، شريف فيها ، منسى فى الآخرة خامل فيها يجىء يوم القيامة معه لواء الشعراء الى النار » (١) • ويقصد النبى (ص) لواء الشعراء المشابهين لامرىء القيس وليس مجمل الشعراء ، لأن مواقف النبى (ص) من شعر عنترة ، ثم من شعر الخنساء ، نقيضة لهذا الموقف •

والمتتبع لمعلقة امرىء القيس ، يجدها مليئة بالمغامرات المتتالية مع المعشوقات ، وهى مغامرات متنوعة ومليئة بالمجازفة حتى ينتهى بموقف يائس متشائم ، وهو موقف لا يرضاه « القائد » لجنوده فهو يود أن يرى المسلمين جميعا جنودا جادين فى

سبيل نشر الدين والمحافظة على دولتهم ، وندرك للوهلة الأولى أن شعر امرىء القيس لا يحض على « مكارم الأخلاق » وهى مقياس القبول أو الرفض لدى النبى ٠

لذلك أنذر من يحاول أن يقلد امرىء القيس ، تخويفا من مجاراته فى غرضه الشعرى أو فى طريقته فى الحياة ، مما يؤكد على حسم النبى(ص) وتشدده مع الشعراء الماجنين ٠ كذلك موقفه مع الهجائين أو مع من ينالون من الدين أو من النبى أو من المسلمين ٠

والحكاية التى رواها ابن قتيبة عن بجير وكعب ابنى زهير دليل على ذلك ، فقد « أتى بجير » النبى (ص) فأسلم فكتب اليه كعب :

الا أبلغا عنى بجيرا رسالة
فهل لك فيما قلت بالخيف هل لكا
سقيت بكأس عند آل محمد
فأنهلك المأمون منها وعلكا

فخالفت أسباب الهدى وتبعته
على أن شيئا ويب غيرك دلكا

فبلغ رسول الله شعره هذا . فتوعده ، ونذر دمه • فكتب بجير الى كعب يخبره بأن رسول الله قتل رجلا ممن كان يهجوه ، وأنه لم يبق من الشعراء الذين كانوا يؤذونه الا « ابن الزبعرى السهمى » و « هبيرة بن أبى وهب المخزومى » وقد هربا منه فان كانت لك فى نفسك حاجة فأقدم عليه فانه لا يقتل أحدا أتاه وان أنت لم تفعل فانج بنفسك •

وتدل هذه الحكاية على روح الحسم فى مواجهة أعداء النبى الذين يهجونه وتدل فى الجزء التالى منها على روح السماحة التى استقبل بها كعبا وهو تائب مادح • فلما ورد عليه الكتاب (كعب) ضاقت عليه الأرض برحبها ، وأرجف به من كان بحضرته من عدوه • فقال قصيدته التى أولها :

ـ بانت سعاد فقلبى اليوم متبول •

وفيها قال :

- نبئت أن رسول الله أوعدني
والعفو عند رسول الله مأمول

ثم أتى رسول الله ، فوضع يده في يده ، وأنشد شعره ، فقبل توبته وعفا عنه وكساه بردا ، فاشتراه منه معاوية بعشرين ألف درهم فهو عند الخلفاء الى اليوم » (٢) • ويقف عفو النبي عن كعب دليلا على ثبات المقياس (مكارم الأخلاق) اذ ارتبطت توبة كعب بعودته الى مصداقية القياس الأخلاقي •

ومن هنا نقول ان الاسلام حين وصف الشاعر وصنف الشعراء كان يهدف الى ربط مقولات الشاعر بخدمة الدولة الجديدة • لذلك قتل النبي (ص) بعض الشعراء الهجائين في حين أبقى على حياة كعب بن زهير بعد توبته ودخوله الى حرم الدولة الجديدة •

وبالتالى ، لم تكن الصياغة الفنية هى وجه الاعتراض ، بل كان (الغرض/ المغزى/ الدلالة/ الوظيفة) هى وجه الاعتراض أو الاجازة ·
وسوف نرى تعليقات عمر بن الخطاب مختلفة عن تعليقات النبى (ص) لأن الظروف المحيطة بالدولة قد تغيرت وموقف الحاكم قد تغير أيضا ·

أما عمر بن الخطاب فقد صرح أكثر من مرة بموقفه من الشعر والشعراء ، وكانت ملاحظاته الذوقية مقتربة من « فنية القصيدة » ولكنها ملاحظات متفرقة يجمعها الذوق الخاص ، ولا تجمعها نظرة نقدية ·

لقد أبدى عمر رأيه فى شعر امرىء القيس، وزهير بن أبى سلمى والنابغة الذبيانى ، والأخطل· وقد وصف امرىء القيس بصفات تميزه عن غيره بل تعطيه الريادة ، على الرغم من قول النبى (ص) السابق فى حق الشاعر نفسه ، فقد قال عمر عنه

« سابق الشعراء ، وخسف لهم عين الشعر »(٤) .
ويعنى قوله ان امرىء القيس نهل من عيون الشعر حتى سحت فيها المياه ، فهى لذلك مخسوفة ، وعمر هنا يعلى من مكانة الشاعر الفنية ، ويضيف اليها الزيادة والسبق .

وقد أثر ذوق «عمر» على بعض الشعراء ، فنجد الأخطل يتبع رأى عمر فى شاعر جاهلى آخر ، ويحتكم برأيه أمام عبد الملك بن مروان ، فقد صدق على قول أحد الجالسين فى بلاط الخليفة قائلا « صدق يا أمير المؤمنين النابغة أشعر منى ، فقال عبد الملك : ما تقول فى النابغة ؟ قلت : قد فضله عمر بن الخطاب على الشعراء غير مرة»(٥) .

وواضح ان « أفعل » التفضيل السائدة فى أحكام العرب على الشعراء تتكرر ، حتى أن الحكم على أكثر من شاعر بأنه أفضل شاعر وأشعر الشعراء يتكرر هنا فى أحكام عمر بن الخطاب ، فهو يقول:

ان امرىء القيس خسف عيون الشعر وهو سابق الشعراء ، ثم نسمع من الاخطل أن عمر يفضل النابغة الذبيانى على الشعراء أكثر من مرة ثم نراه فى حوار مع ابن عباس يسأله « أنشدنى لشاعر الشعراء » (٦) ، ويقصد زهير بن أبى سلمى • وينعكس هذا التكرار على تفضيل الشاعر الفرد على الشعراء كافة ، الذوق الخاص للمتحدث ، وينعكس فى الوقت نفسه التشابه فى الأحكام بل تكرار حكم واحد على أكثر من شاعر متفاوتى القيمة حتى ليصبح ثلاثة من الشعراء أشعر الشعراء • وهنا نستطيع أن نقول ان لحظة التلقى وحالة المتلقى الخاصة هى المتحكمة فى هذا التكرار والتشابه ، حيث نجد كل من يعجبه شعره يأخذ لقب أشعر الشعراء أو سابق الشعراء •

لكننا نرى ابن الخطاب يفصل القول عن شعر « زهير » فقط فيقول انه « الذى لم يعاظل بين

القوافى ، ولم يتبع وحشى الكلام » (٧) وفى سياق آخر أضاف وانه كان يدعو الى « مكارم الأخلاق » ٠

وفى هذا عود الى مقياس النبى فى القبول والرفض ٠

وصفات شعر زهير تفصل الحديث عن اللفظ، والقافية والدلالة وهى مكونات آساسية للقصيدة أى أن زهيرا لا يدخل القوافى بعضها على البعض الآخر ، ويستخدم اللفظ الواضح المستعمل ويبعد عن الغريب والشاذ والملحون ، وكما يقول قدامة بن جعفر « عيوب اللفظ أن يكون ملحونا وجاريا على على غير سبيل الاعراب واللغة ٠٠٠ وان يركب الشاعر منه ما ليس يستعمل الا فى الفرط ، ولا يتكلم به الا شاذا وذلك هو الوحشى الذى مدح عمر بن الخطاب زهيرا بمجانبته له وتنكبه اياه ٠٠ » (٨) ٠

ونلاحظ ان اشـارة قدامة لحديث عمر عن شعر زهير تأخـذ حيزا في استشهاده على عيـوب اللفظ ، وهي الاشارة التي أشارها عمر بن الخطاب في ملاحظته الخاصة بشعر زهير ويدل ذلك عـى صدق الذوق الخاص ·

وقد اتخذ عمر بن الخطاب موقفا متشددا من (الحطيئة) حين هجا المسلمين وتغزل في نسائهم حتى انه أمـر بقطع لسـانه ، وان لم يفعل ، لأنه يقف موقف الحـاكم المسـئول عن الدولة ، كما وقف النبي (ص) من قبل موقفا أكثر شدة · ونلاحظ هنا ان المسـئولية قد غيرت طباع عمر وموقفـه من الشعراء ·

ولقد تغيرت خريطة الشعر في عهـد عمر ، وظهرت قصائد الفتوح الاسلامية ، وشعر الفتوح في معظمه وصفي ، حيث يصف الشـاعر الأماكن الجديدة خاصة والطبيعة خارج الجزيرة العربيـة

مختلفة التكوين . فقد وجد الفاتحون الحدائق والانهار والخضرة المنتشرة فى أنحاء البلاد المفتوحة، وهى بالطبع مختلفة عن الطبيعة الصحراوية لشبه الجزيرة العربية ، لذلك ظهر الشعر ، وظهر الوصف ، كما ظهرت قصائد وصف البلدان والمقارنة بين بلاد العرب والبلاد الجديدة . ولا ننسى الصبغة الدينية التى صبغت هذه القصائد .

وظهرت هذه الأوصاف الجديدة فى نثر القادة والفاتحين وفى رسائلهم الى أمير المؤمنين ، ومقارنة سريعة تستخرج هذه العلاقة الوصفية بين الشعر والرسائل .

ولم يختلف ذوق عثمان بن عفان عن ذوق من سبقه من الخلفاء ، الا أنه فتح الباب قليلا أمام الشعراء ، فى أمور كانت مرفوضة لدى سابقه ، لذلك :

حينما ننتقل الى فترة خلافة على بن أبى طالب

نجد تغيرا مهما فى تاريخ الشعر العربى ، وهـو
ظهور شعر الفرق الاسلامية المتعددة والمتناقضة ٠

وسوف ندرس هـذا الموضوع فى الوحدة التالية
متخذين من أحداث الفتنة الكبرى ، والصراع بين
على ومعاوية نموذجا لهذا الشعر ، على سبيل المثال ٠

الشعر ودوره السياسي
بين
علي ومعاوية

عادة ما يكون الشعر السياسى محصلة لصراع اجتماعى أو سياسى أو عسكرى يقوم بين قوى اجتماعية ذات مصالح متضاربة ، تحاول كل مجموعة منها أن تحصل على نصيب الأسد أو تحصل على الرئاسة أو الزعامة أو ما شابه ذلك من أغراض ٠

والصراع الذى بين يدينا الآن هو الصراع الذى بدأ بمقتل عثمان بن عفان وانتهى بمقتل على بن أبى طالب ، اذ بين المقتلين حدثت من الحوادث العسكرية والسياسية الكثير ٠

بدأ هذا الصراع حين نسب معاوية مقتل عثمان الى على بن أبى طالب وولديه الحسن والحسين، وجعل من قوله تعالى « ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا فلا يسرف فى القتل انه كان منصورا » ، شعارا لصراعه · فقد اعتبر معاوية نفسه ولى عثمان فنادى بالثأر ونادى بدم عثمان وكان موقف على واضحا فى رسالته الى معاوية اذ برأ نفسه من القتل وبرأ ولديه الحسن والحسين ·

ولما كان عثمان بن عفان قد جعل معاوية واليا على الشام،ولما كان معاوية لم يقم بالبيعة لعلىاعتبر نفسه حاكما ، واعتبر نفسه واليا ، وبدأ يستعد لقتال على بن أبى طالب رغم مبايعة الناس لعلى · فقد قال له على فى رسالة له : « لقد بايعنى من بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان فليس أمامك الا البيعة لى » وهذا هو مركز الصراع ·

وقد انعكس هـذا الصراع فى الشعر (٩) الذى تناوله الحكام ، وتناوله الرسل ، وتناوله المؤيدون. وحينما نستعرض بعض هـذا الشعر لندرك كيف أسهم الشعر في هذه الحرب الدائرة نبدأ بشعر الشاعر الشنى .

وهو الاعور الشنى بشر بن منقذ . أحد موالى اصفى بن عبد القيس ، وقد قال عنه « الآمدى » فى كتابه « المؤتلف والمختلف » : انه شاعر خبيث .

وبعيدا عما قاله الآمدى فان شن بن عبد القيسى قال لعلى محرضا له على قتال معاوية :

قل لهذا الامام قد خبت الحرب
وتمت بذلك النعماء

وفرغنا من حرب من نقض العهد
وبالشام حية صماء

تنفث السم ما لمن نهشته
فارمها قبل ان تعض شفاء

انه والذى يحج له النـــا
س ومن دون بيته البيـــداء

لضعيف النخاع ان رمى اليـــو
م بخيل كأنهـــا الأشـــلاء

جانحات تحت العجاج سخالا
مجهضات تخالهـــا الأسلاء

تتبارى بكل أصـــيد كالفحل
يكفيه صـــعدة ســـمراء

ثم لا ينثنـى الحـــديد ولمـــا
يخضب العاملين منها الدماء

ان تذره فما معـاوية الرهـــر
بمعطيـــك ما اراك تشـــاء

ولنيل السماك أقرب من ذا..
ك ونجم العيوق والعـــواء

فاضرب الحد والحـديد اليهم
ليس والله غير ذاك دواء ..

وواضح من هذه المقطوعة تعـداد التحريض المبذول ضد معاوية ؛ الموصوف بناقض العهد والحية

الصماء التى تنفث السم ويضعف النخاع · وبالطبع يوصف بأنه ساكن الشام الضعيف أمام الامام على القـوى ، وندرك ، أن القصيدة قد انقســمت قسمين : قسما يصف ضَعف معاوية والقسم الثانى يصف الخيل والحديد التى تنتظر مقتل معــاوية وبذلك ختم الشنى قصيدته بقوله :

فاضرب الحد والحديد اليهم
ليس والله غير ذاك دواء ··

وكما أرسل « على » رسله وعماله أرسل معــاوية ابن أبى سفيان عماله ورسله · وكانت نتيجة الحرب الدائرة بين الاشــتر والضــحاك وهى حــرب بين العثمانيين والعلويين لصالح رسل على بن أبى طالب رغم المقاومة الشديدة التى بذلها بنــو أســد فى « مرج مربنا » ·

ونســمع ذلك فى قصــيدة « أيمن بن خــريم » « يعاتب معاوية بقوله » :

- أبلغ أمير المؤمنين رسـالة
من عاتبين مسـاعر انجـاد

منيتهـم ان آثروك مشـوبة
فرشدت اذ لم توف بالميعـاد

- انسيت اذ فى كل عام غارة
فى كل ناحية كرجل جـراد

غارات اشتر فى الخيول يريدكم
بمعـرة ومضرة وفسـاد

وضع المسالح مرصدا لهلاككم
ما بين عانـات الى زيـداد

وحوى رساتيق الجزيرة كلها
غصـبا بكل طمرة وجـواد

لما رأى نيران قومى أوقدت
وابو انيس فاتـر الايقـاد

أمضى الينا خيـله ورجاله
واغـذ لا يجرى لأمر رشـاد

ثرنا اليهم عند ذلك بالقنـا
وبكل ابيض كالعقيقـة صـاد

في مرج قرينا ألم تسمع بنا
نبغى الامام به وفيه نعـــادى

لولا مقام عشيرتى وطعــامهم
وجلادهم بالمرج أى جـلاد

لأتاك اشتر مذحج لا ينثنى
بالجيش ذا حنق عليـــك وآد

وأيمن فى هــذه القصيدة يعتب عــلى « أمير المؤمنين » انه لم يف بالوعد بعد أن نصره جمــع غفير ، وحاولوا أن يصدوا هجمات رسل على وهــو عتاب مر ، وقد توالت رسل التأييد لعلى بعد هــذا الصراع بين « الضحاك والاشطر » والتف حــوله اناس كثيرون ناصروه وبايعوه ومن هؤلاء الناس من أرســل الخطابات شــعرا يستنهض به هممهم ليدخلوا فى طاعة على من ذلك شعر أحد رجال طىء الذى بعث الى جرير خاله يقول :

جرير بن عبد الله لا تردد الهــدى
وبايع عليــا اننى لك ناصح

فان عليا خير من وطيء الحصى
سوى أحمد والموت غاد ورائح

ودع عنك قول الناكثين فانما
أولاك أبا عمر كلاب نوابح

وبايعه ان بايعته بنصيحة
ولا يك منها فى ضميرك قادح

فانك ان تطلب به الدين تعطه
وان تطلب الدنيا فبيعك رابح

ان قلت عثمان بن عفان حقه
على عظيم والشكور مناصح

فحق على اذ وليك كحقه
وشكرك ما أوليت فى الناس صالح

وان قلت لا نرضى عليا امامنا
فدع عنك بحرا ضل فيه السابح

أبى الله الا أنه خير دهره
وأفضل من ضمت عليه الأباطح

وهى قصيدة تخاطب عقيدة جرير فى شكل نصيحة يسديها اليه ابن أخته تصف عليا بالدين وبأنه خير دهره وأفضل من ضمت عليه الأباطح ٠

وهذه النصيحة وغيرها تتعلق بمبدأ أساسى فى فكر الشيعة هو مبدأ الوصاية ، فهـذا « جـرير البجلى » يرد على كتاب « على » اليه ويحمل فيـه ملامح الرضا على « على » ويشرح فيه موقفه منـه ويثبت وفق فكرهم العلاقة بين النبى (ص) والوحى والرسالة والوصاية والأمانة والعدل، وعلى بن أبى طالب . والرسالة / القصـيدة رد على مـا قاله : « ذخر بن قيس » أحد أتباع على حين قال :

« أيهـا الناس ان عليا قد كتب اليـكم كتابـا لا يقال بعده الا رجيع من القول ، ولكن لابد من رد الـكلام - ان النـاس بايعوا عليا بالمدينة من غـير محاباة له ؛ بيعتهم لعلمه ، بكتاب الله وسنن الحق ، وان طلحة والزبير نقضا بيعته على غير حدث والبا عليه الناس ثم لم يرضـيا حتى نصبا له الحـرب وأخرجا أم المـؤمنين فلقيهما فأعـذر فى الدعاء وحسن فى البقية وحمل الناس على ما يعرفون .

هذا عيان ما غاب عنكم • ولئن سألتم الزيادة زدناكم ولا قوة الا بالله » •

وجاءت القصيدة ــ من هنا ــ ردا وجوابا على هذه الخطبة • يقول جرير البجلى :

ــ أتانا كتاب على قلم
نرد الكتاب بأرض العجم

ولم نعص ما فيه لما أتى
ولما نلم ولما نسلم

ونحن ولاة على ثغرها
نضيم العزيز ونحمى الذمم

نساقيهم الموت عند اللقاء
بكاس المنايا ونشقى القرم

طحناهم طحنة بالقنا
وضرب سيوف تطير اللمم

مضينا يقينا على ديننا
ودين النبى مجلى مظلم

أمــين الالــه وبرهانــه
وعــدل البريـة والمعتصــم

رســول المليك ومن بعـده
خليفتنـا القــائم المدعـم

عليـا عنينـا وصى النبــى
نجـالله عنــه غـواة الأمم

له الفضل والسبق والمكرمات
وبيت النبــوة لا يهتضــم

والقصــيدة والخطبة كلاهما مبايعـــة لعــلى ومكاشفة بين أتباعه ٠ وقد تكررت كلمات الوصاية والسبق والنصح والوزارة والشجاعة والأمامة على انها صفات لعلى حيث يصفه انصـــاره بأنه وصى النبى (ص) وسيف الفتوح أعنى انهم يصفونه بصفات تؤهله لأن يكون أميرا للمؤمنين كمن جاءوا قبله ٠ وندرك سرور المسلمين برسول على بنــاء على مــا تقــدم فى قــول «الاشعث» يعبر عن ذلك بقوله :

أتانا الرســول رســول عـلى
فسر بمقــدمه المسلمونا

رســـــول الوصى ، وصى النبى
له الفضل والسبق فى المؤمنيـــا

بما نصـــــح الله والمصطفى
رسول الاله النبى الأمينا

يجـــاهد فى الله لا ينثنـــى
جميع الطغـاة مع الجاحدينــا

وزير النبـــى وذو صـــــهره
وسيف المنيـــة فى الظالمينـا

وكم بطـــل ماجـــد قد أذاق
منيـــة حتف من الكافرينــا

وكم فارس كان ســال النزال
فآب الى النـــار فى الآئبينـا

فذاك على امـــام الهـــدى
وغيث البـرية والمقحمينـــا

وكان اذا ما دعـــا للنـــزال
كليث عرين يزين العرينـــا

أجـــاب السؤال بنصح ونصر
وخالص ود عـلى العالمينـــا

فمـازال ذلــك من شـــأنه
ففـــاز وربـــى مع الفائزينـــا

وقد قدم «الأشعث» هذا على على من الكوفة مع وفد كبير وبايعوا عليا ٠

وقد لخص أنصار علي موقفه من بؤرة الصراع الدامية في قول «جرير» أمام معاوية « أيها الناس ان أمر عثمان قد أعيا من شهده ، فما ظنكم بمن غاب عنه ٠ وان الناس بايعــوا عليــا غــير واتر ولا موتور ، وكان «طلحة» و «الزبير» ممن بايعه ثم نكثا بيعته على غير حــدث ٠ ألا وان هــذا الدين لا يحتمل الفتن ، الا وأن العرب لا تحتمل السيف، وقد كانت بالبصرة أمس ملحمة ان يشفع البــلاء بمثلها فلا بقاء للناس ٠ وقد بايعت العامة عليا ٠ ولو ملكنا الله أمورنا لم نختر لها غيره ؛ ومن خالف هذا استعتب فادخل يا (معاوية)فيما دخل فيه الناس فان قلت : استعملنى عثمان ثم لم يعزلنى ، فان هذا أمر لو جاز لم يقم الله دين ٠

وكان لكل امرىء ما فى يديه • ولكن الله لـم يجعل للآخر من الولاة حق الأول وجعل تلك أمورا موطأة ينسخ بعضها بعضا •

(ثم قعد) فقال معـاوية : أنظـر وننظر ، واستطلع رأى أهل الشام •

فلما فرغ جرير من خطبته أمر معاوية مناديا فنادى : الصلاة جامعة • فلما اجتمع الناس صعـد المنبر ثم قال : الحمـد لله الذى جعـل الدعائـم للاسلام أركانا : والشرائع للايمـان برهانا يتوقد قبسه فى الأرض المقدسة التي جعلها الله محـل الأنبياء والصالحين من عباده ؛ فأحلها أهل الشام ورضيهم لها ورضيها لهم لما سبق من مكنون علمه من طاعتهم ومناصحتهم خلفاءه والقوام بأمره ، والذابين عن دينه وحرمانه ثم جعلهم لهـذه الأمة نظاما •• أيها النـاس قد علمتم أنى خليفة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وانى خليفة عثمان بن

عفان عليكم وأنى لم أقم رجلا منكم على خزاية قط، وانى ولى عثمان وقد قتل مظلــوما والله يقــول : « ومن قتل مظلوما فقد جعلنـا لوليــه ســلطانا فلا يسرف فى القتل انه كان منصورا » وانا أحب أن تعلمونى ذات أنفسكم فى قتل عثمان ٠

فقــال أهل الشــام بأجمعهم فأجابوا الى الطلب بدم عثمان وبايعوه على ذلك ٠

ومن هذا الحديث الطويل نستنتج بؤرةالصراع التى انصهر فيها على ومعاوية، ونستنتج ـ أيضا ـ كيف أن أهل الشــام كانوا عثمــانيين وان أهــل العراق كانوا علويين٠ وندرك من الوهلة الأولى كيف ساهمت الخطبة فى شرح المواقف والاستدلال عليها والبرهنة على صحة موقف كل طرف على حدة ٠ لقد استشهد «على» فى حديثــه السابق بالعقل والمنطق لأنه أراد أن ينفى شبهة حاول معاوية أن يلحقها به ، وكان استشهاده بالمبايعــة الشعبية وبأحقيته

بالخلافة شرعا وقانونا • ثم رأينا ان اتباع علي يساهمون بشعرهم السياسى في شرح موقفهم من علي ومن معاوية حتى استخدمت القصيدة كرسالة وخطاب موجز ومحدد • وكما أشرنا سابقا كان شعرهم واضحا بعيدا عن اللبس والغموض وبعيدا عن التشابك اللفظي أو المعنوى •• فهو شعر سلس مرسل يقترب من النظم لأنه يتوجه الى العقل مباشرة ،ويقدم مقولات ثابتة بين المسلمين لا تحتاج الى من يبحث خلفها أو أمامها •

ولقد رأينا أن هذه القصائد السابقة بعدت عن

التخييل ، واكتفت بضرب المثل للتوضيح والشرح واستخدمت الصورة الشعرية « الافعى » للدلالة على الشر حتى يكره المسلمون هذه الشخصية الأفعى •

أما حديث معاوية ، فقد استخدم الخطبة واستدل عليها بالقرآن الكريم حتى يجد لنفسه سندا مقدسا على الرغم من ان الآية الكريمة لم

تكن فى مقتل عثمان لكنه استطاع بمهارة أن يلصق مقتل عثمان بعلى وولديه كما أشرنا من قبل. ونجح فى اثارة عواطف أهل الشام وهم الذين أغدق عليهم عثمان الأموال والمناصب وجعلهم يعيشون فى نعيم ، وعند هذا الحد يخرج معاوية فى ثوب الناصح الأمين والمتحدى لزيارة رسول على « جرير » . وها هو معاوية لا يقف عند الخطبة والتأليب بل يصوغ موقفه شعرا بعد ليلة غم قضاها عقب زيارة رسول على فقد قال فى هذه المناسبة :

تطاول ليلى واعترتنى وساوسى
لآت أتى بالترهات البسابس

أتانا جرير والحوادث جمة
بتلك التى فيها اجتداع المعاطس

أكابده والسيف بينى وبينه
ولست لأثواب الدنى بلابس

ان الشام أعطت طاعة يمينة
تواصفها أشياخها فى المجالس

فان يجمعوا أصدم عليها بجبهة
تفت عليـه كل رطب ويابس

واني لأرجو خير ما نال نائل
وما أنا من ملك العراق بآيس

والا يكونوا عند ظـنى بنصرهم
وان يخالفوا ظنى بكف عابس (٩)

وهى قصيدة تظهر فيها بالطبع وساوس معاوية وتحدد موقفه من الطرف المقابل له فى الصراع الدائر . لذلك نجد فيهـا الحس الذاتى والرؤية الخاصة بالصراع السياسى والحربى ٠

وبعد : فاننا نلمح هنا أن الشعر قد قام بدور سـياسى واعلامى لم يختلف عن دوره فى الصراع الذى كان دائرا بين النبى (ص) والمشركين ٠ وقد أخذت القصيدة شكل التعبير المباشر أيضـا ٠ ولن تتغير القصيدة الا بعد أن يحدث التغيير الحضارى / الاجتماعى / الفكرى ، على أيدى خلفاء بنى أمية .

اذ ظهرت أشكال قصيدة جديدة فى المدح والغزل والنقائض والأغانى . وسوف ينقلب الأمر نقيضا لذلك فى العصر العباسى (١٣٢ هـ - ٦٥٦ هـ) عندما يبنى العباسيون حضارة جديدة ، عكست تجلياتها على القصيدة المتمردة ، المجددة ، كما أشرنا فى الفصول الأولى من هذا الكتاب .

هوامش الفصل الرابع

(١) ابن قتيبة ، **الشعر والشعراء** ، تحقيق أحمد محمد شاكر ، ج ١ ، دار المعارف ، ١٩٦٦م ، ص ١٢٦ ٠

(٢) نفسه ص ١٤١ ــ ١٤٢ ٠

(٣) نفسه ص ١٤٢ ٠

(٤) نفسه ص ١٢٧ ٠

(٥) نفسه ص ١٥٨ ٠

(٦) نفسه ص ٤١٣ ٠

(٧) نفسه ٠

(٨) قدامة بن جعفر ، **نقد الشعر** ، تحقيق كمال مصطفى ، مكتبة الخانجى طبعة ثالثة ، ١٩٧٩م ، ص ١٧٢ ٠

(٩) ابن مزاحم ، **وقعة صفين** ، القاهرة ، ١٩٧٠ ٠
نقل البحث الاقتباسات النثرية والشعرية من متن هذا الكتاب ٠

المصادر والمراجع

أولا

المصادر والمراجع العربية

- ابن قتيبة ، **الشعر والشعراء** ، جـ ١ ، تحقيق أحمد محمد شاكر ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٦ .
- ابن مزاحم ، **وقعة صفين** ، احياء الكتب العربية ، القاهرة ، ١٣٦٥هـ .
- أبو الفرج الاصفهانى ، **الأغـــانى** جـ ١٦ ، دار الكتب القاهرة . ١٩٦٠ .
- جابر عصفور ، **الشاعر الحكيم** ، فصول ، عـــدد مارس ، ١٩٨٣م .
- جمال الدين الشيال ، **رفاعة رافع الطهطاوى** ، دار المعارف الطبعة الثالثة ، ١٩٨٠ .
- حسان بن ثابت ، **ديوان حسان بن ثابت** ، تحقيق سيد حنفي حسنين ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٧٨م .

- حسين مؤنس :
- **الحضارة** ، سلسلة عالم المعرفة ، العدد الأول ، الكويت ، يناير ، ١٩٧٨م .
- **الشرق الاسلامى الحديث** ، الطبعة الثانية ، القاهرة ، ١٩٣٨ .
- شوقى ضيف :
- **العصر الاسلامى** ، دار المعارف ، الطبعة الثامنة ، ١٩٧٨م .
- **العصر العباسى الأول** ، دار المعارف ، الطبعة السادسة ، ١٩٧٨م .
- صلاح الدين عبد الوهاب ، **أضواء على المجتمع العربى** ، المكتبة الثقافية أول أغسطس ١٩٦٣م .
- طه حسين ، **مستقبل الثقافة فى مصر** ، مطبعة المعارف ، القاهرة ، ١٩٣٨ .
- **عباس محمود العقاد :**
- **فلاسفة الحكم فى العصر الحديث** ، سلسلة اقرأ (٩٧) دار المعارف ، القاهرة ، ديسمبر ١٩٥٠م .
- عبقرية الامام ، دار المعارف ، القاهرة ، يونيه ١٩٥٢م .
- عبد الله سلوم السامرائى ، **الغلو والفرق الغالية فى الحضارة الاسلامية** ، دار واسط للنشر ، لندن ، بغداد ، ١٩٨٢ .
- عبد المنعم تليمة : **مداخل الى علم الجمال الأدبى** ، دار الثقافة الجديدة ، ١٩٨٠ .

- عمر بن أبى ربيعة ، **ديوان عمر بن أبى ربيعة** ، الهيئـــة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٧٨م .

- قدامة بن جعفر ، **نقد الشعر** ، تحقيق كمال مصـــطفى ، مكتبة الخانجى ، الطبعة الثالثة ١٩٧٩م .

- محمد أمين صالح ، **تاريخ الدولة الاسلامية** ، مكتبة سعيد رأفت ، القاهرة ، الطبعة الاولى ، ١٩٧١ .

- محمد عابد الجابرى ، **العصبية والدولة**،دار الشئون الثقافية العامة (آفاق عربية) بغداد .

- محمد زغلول ســـلام : **الأدب فى العصر المملوكى** ، دار المعارف ، ١٩٨٠ .

- محمود رزق سليم ، **عصر سلاطين المماليك** ، ج ٦ ، مكتبة الآداب ، الجماميز ، القاهرة ١٩٦٢م .

- **مدحت الجيار :**
- **خيال الظل مسرح العصور الوسطى الاسلامية** ، فصول ، العدد السادس .

- وظيفة الشعر فى **سيرة الزير السالم** ، المؤتمر الثـــانى للسير الشعبية العربية ، القاهرة ، ٦/٢ يناير ١٩٨٥م

ثانيا

المراجع المترجمة الى العربية

- أرنولد هاوزر ، **الفن والمجتمع عبر التاريخ** ، ترجمة فؤاد زكريا ، ج ٩ ، دار الكاتب العربى للطباعة والنشر ، ١٩٦٧م .

- جورج بوييه شمار ، **المسئولية الجزائية فى الآداب الآشورية والبابلية** ، ترجمة سليم الصنويص ، منشورات وزارة الثقافة والاعلام ، بغداد ، ١٩٨١ .

- جيمس هنرى برستد ، **فجر الضمير** ، ترجمة سليم حسن سلسلة الألف كتاب ، (١٠٨) الناشر مكتبة مصر ، القاهرة ١٩٥٦م .

ثالثا

المعـــاجم

ـ ابن منظور ، لسان العرب ، دار المعارف ، جـ ٧ .

The Lexicon Webster dictionary. Volume I. Section civil.

رابعـــا

المراجع الأجنبية

Lambton, state and government in medieval islam Oxford University Press, 1981.

فهـــرس

الصفحة

الفصل الرابع

الصفحة

مكتبة الأسرة



بسعر رمزى جنيه واحد
بمناسبة
مهرجان القراءة للجميع ١٩٩٧

مطابع
الهيئة المصرية العامة للكتاب

■ د. مدحت الجيار

– أستاذ ورئيس قسم اللغة العربية بكلية الآداب - جامعة الزقازيق.

– له عشرات المؤلفات والبحوث والدراسات التى نشرت فى مصر والعالم العربى.

– من العناصر النشطة المشاركة فى فعاليات المؤتمرات والمنتديات العلمية والأدبية.

– عضو مجلس إدارة أتيليه القاهرة وإتحاد الكتاب.

– من أهم دراساته ما نشر له عن المازنى والنقد الأدبى.

– وهذا الكتاب مـحـا...
العربى مرتبطاً بتجلياته ال...

